تاريخ الأدب السرياني

من نشأته الى الفتح الإسلامي

بقلم

دكتور مراد كامل
الأستاذ المساعد للغات السامية
معهد اللغات الشرقية
جامعة فؤاد الاول

دكتور محمد حمدي البكري
مدرس اللغات السامية
معهد اللغات الشرقية
جامعة فؤاد الاول

طبع بمطبعة السنة والتعليم
١٩٤٩

تقدمة

لا بدَّ لمن يدرس أدب السريان أن يلمَّ إلمامة قصيرة بهذه اللغة التي صدر عنها ذلك الأدب ، وإلى أي أسرة من اللغات تنتمي ، وعن أي مجموعة نبتت هذه الأسرة . فاذا بلغ من ذلك ما يريد ، كان عليه أن يدرس شيئاً عن هذه الأسرة ، وما تفرَّع عنها من فروع غير سريانية

واللغة السريانية التي نتناول آدابها بالبحث في هذا الكتاب هي إحدى اللهجات الآرامية والآرامية لغة من مجموعة اللغات التي اتفق العلماء على أن يطلقوا عليها اسم اللغات السامية .

أما موقع اللغة الآرامية من اللغات السامية الأخرى فلنستطيع استجلاءه باستعراض التقسيم الذي اصطُلح عليه للغات السامية . فاللغات السامية قسمان : شمالي وجنوبي . أما الشمالي فينقسم الى شعبتين : شرقية وتشتمل على اللغة الأكّدية بقسميها البابلية والآشورية . وغربية وتشتمل على اللغة الأمَوريّة (وهي لغة نقوش راس شمرا)، والكنعانية والعبرية والآرامية . وأما القسم الجنوبي فيضمُّ اللغة العربية ، ولغة نقوش بلاد العرب الجنوبية ، واللغات السامية الموجودة في بلاد الحبشة .

والآراميون هم ثالث فرع نبت في شجرة الساميين . وكان أول ذكر لهم في نصوص أشوريّة ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ولم يُذكروا فيها على أنهم منتشرون في الصحراء الواقعة غربي ما بين النهرين ، وأنهم كانوا في أول أمرهم قبائل رُحّلاً ينتقلون في البادية — كالعبريين وبقية الأمم السامية — بين نجد في الجنوب ، وحدود الشام في الشمال ، ونهر الفرات في الشرق ، وخليج العقبة في الغرب ، وأن ظروف الصحراء كانت تضطرهم الى الالتجاء الى الحضر في بعض الأحيان فيدخلونه مُقيمين ، وقد استطاعوا في

إحدى إغاراتهم أن يكوّنوا إمارة بين بابل والخليج الفارسي عرفت باسم كلدة، ومنها اشتق اسم الكلدانيين. وبعد سقوط دولة الميتني حوالي سنة ١٣٠٠ ق . م دخل الآراميون ما بين النهرين، وعُرفوا باسم آرام النهرين، وكان تغلغلهم في هذه الأرجاء قد سبق سقوط دولة الميتني. وترجع هجرة قبيلة إبراهيم الخليل — من أور في بلاد الكلدانيين الى حرّان — الى واحدة من هذه الهجرات.

وكذلك أغار الآراميون على الشام وتوغلوا فيها في الوقت الذي كان الصراع فيه قائماً بين الدويلات الكنعانية، وتمكنوا من الوصول الى شمال الشام وكوّنوا دويلات عدة آرامية صغيرة بين حلب وجبال طوروس، ومنها إمارة سمأل بين أنطاكية وعرعش، ومكانها الآن بلدة زنجرلي. وفي أواخر القرن العاشر قبل الميلاد استولى الآراميون على دمشق وأسسوا فيها مملكة كان لها دورٌ مهمٌ في تاريخ ذلك الحين، وبخاصّة في محاربة الفينيقيين والاسرائيليين والتغلب عليهم، وكذلك لعبت دوراً مهمّاً في شئون التجارة. فقد كان البدو من أهلها ينقلون التجارة بين المراكز المختلفة مثل دمشق وحماة وحلب الى بلاد نهر الفرات، وكانت تدمُر مركزاً من هذه المراكز. وقد وصل هؤلاء البدو الى واحات بلاد العرب الشمالية وتركوا بعض النقوش في تيماء.

ولما استولى البابليون على مملكة دمشق في القرن الثامن قبل الميلاد نقلوا الى بلادهم عدداً كبيراً من سَبْرة الآراميين للاستعانة بهم، وقد عبّر القدماء عن ذلك بعبارة «السبي البابلي». وقد استقرّ الآراميون في مملكة بابل ونشروا لغتهم حتى غلبت على اللغة البابلية والآشورية، وتخلّد النقوش الآشورية من عهد سرجون (فيما بين سنتي ٧٢٢، ٧٠٥ ق . م) عدداً من الأسماء الآرامية كان أصحابها يحترفون التجارة في مملكة آشور. وبعد سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق . م. أصبحت [illegible] شور آرامية. وكان من الشائع في بابل أن تكتب العقود باللغتين البابلية والآرامية.

وفي نهاية القرن السادس قبل الميلاد تمّ للفرس الاستيلاء على الشرق وسقطت في أيديهم مدينة بابل سنة ٥٣٨ ق . م. في عهد الأسرة الأكمينية التي يطلق عليها العرب اسم أسرة الكيانيين، وكانت اللغة الآرامية شائعة في الشرق كله حتى بين طبقة الحاكمين من

الفرس ، فاستخدموها لغة للتفاهم بين أجزاء الامبراطورية ، فأصبحت بذلك لغة المكاتبات الرسمية .

وقد وقعت مدينة البتراء تحت تأثير الآراميين ، وكانت عاصمة بلاد النبط . والنبط عرب اتخذوا الآرامية لغة للكتابة وربما كانوا قد تكلموا بها أيضاً .

ويقوم الصراع بين الفرس والروم ، وتكون بلاد الآراميين مسرحاً له ، فهي حيناً في أيدي الفرس ، وحيناً في أيدي الروم ، وتُخرب الحرب بلادهم ، ويتأثرون بحضارة الفرس والروم وتقافتهم ، ويمتصون بذلك وراثة الحضارات الآشورية والبابلية والفينيقية والفارسية واليونانية ، وكانوا يتأثرون خطاً هذه الحضارات ويُضفون عليها نوعاً من التطور ، أما لغتهم فإنها كانت تفرض نفسها على سائر اللغات فأبادت اللهجات الآكادية والكنعانية . وكانت قوتها كامنة في بساطة أبجديتها ، وسهولة نحوها وصرفها ، ولذلك فقد كانت الآرامية لغة الأقوام السلميين النشيطين الرُّحَّل الذين اشتغلوا بالتجارة والذين كانوا موظفين أكفاء أعانوا الفرس على إدارة امبراطوريتهم .

ولم تكن الآرمية لغة الامبراطورية الفارسية الرسمية فحسب ، وإنما كانت لغة دولية — إن صحَّ هذا التعبير — نعلم ذلك من الكتاب المقدَّس . فقد جاء في سفر الملوك الثاني (١٨ : ٢٦) وأشعيا (٣٦ : ١١) أنه في سنة ٧٠١ ق . م . لما حاصر سنحاريب بيت المقدس في عهد حزقيا كان الشعب يتكلم الآرامية وكانت أرستقراطية اليهود تعرف الآرامية ، وكان موظفو سنحاريب يعرفونها أيضاً .

وقد تمَّ انتشار الآرامية واتصال أصحابها بغيرهم من الأقوام أن تولَّدت منها لهجات عدة يمكن أن نميز بينها تبعاً لاختلاف الزمان والمكان والدين والحضارة . وقد اختلفت الآراء في تقسيم لهجات الآرامية ، فيقسمها «نولدكه» الى شرقية وغربية ، واللهجات الشرقية عنده هي لهجات التلمود البابلي والسريانية والمندعية . ما عدا ذلك فهي غربية . ومع ذلك فالواقع أن الخلاف بين اللهجات الآرامية لم يتخذ شكلاً واضحاً إلا في عصر متأخر وهو العصر الذي يبدأ تقريباً بظهور المسيحية . وعلى ذلك ، يجب استبعاد اللهجات الآرامية التي تعود لتقريبها ، وهي طبعاً إنجيلية ، والآرامية التي استعملها الفرس في دواوينهم والتي

يسميها البعض الآن بالآرامية الدولية ، وآرامية أوراق البردي التي وُجدت في جزيرة الفنتين بأسوان ، وآرامية الكتاب المقدس . ونستطيع بعد ذلك أن نقسم اللهجات الآرامية الى شرقية وغربية. أما الشعبة الشرقية فتضمّ لهجة الرُّها الآرامية وكان موطنها ما بين النهرين وسميت بعد ظهور المسيحية السريانية ، ولهجة آرامية يهودية بابلية هي لهجة التلمود البابلي كان موطنها شمالي العراق ، ولهجة الصابئين الآرامية وهي اللهجة المندية وموطنها جنوبي العراق .

أما الشعبة الغربية فتضم دويلتين لسانهما آرامي وهما تدمر والنبط . وقد وصلت إلينا لغتهما عن طريق النقوش فقط . وثلاث لهجات أدبية وهي اليهودية الغربية المقدسية والجليلية ، والسامرية ، والمسكية أو الآرامية الفلسطينية المسيحية .

وأقدم ما وصل الينا من الكتابات الآرامية مستخرج من حفائر زنجيرلي وهي عاصمة مملكة سمأل ، وهي الآن قرية في سوريا الشمالية قريبة من عنتاب شمالي حلب . وترجع هذه الكتابات الى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد وهي للملك بنمّو ملك سمأل وابنه بوركوب . وكانت مملكتهما خاضعة للآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد .

وهناك كتابات وجدت في تيراب من أعمال حلب ، وهي من كتابات القبور كتبت في القرن السابع قبل الميلاد لكاهنيّ القمر شزربن وأجير .

وقد وُجدت في تيماء بنجد في شمالي جزيرة العرب صورة لكاهن مع نقشين أحدهما كبير والآخر صغير . ونص النقش الكبير معدوم . وقد جاء فيما بقي سالماً أن آلهة تيماء أعطوا الكاهن وسلّمه ... ما والآ في بيت عظم الأبد ، وأن الصورة صورة الكاهن . وترجع هذه الكتابات الى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد .

أما الكتابات الآرامية الفارسية فقد وصلت الينا من العصر الفارسي نصوص آرامية كثيرة من جهات مختلفة من الامبراطورية الفارسية ومنها ترجمة آرامية لكتابة « بهستون » المشهورة التي أمر بكتابتها دارا الأول سنة ٥١٨ ق . م . على جبل عالٍ في جانب الدرب الذي بين بابل وأكباتانا ليضع اسمه « بهستون » وهي كتابة بالخط المسماري في ثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والبابلية المتأخرة ، والعيلامية . وقد أرّخ دارا في هذه الكتابة

حروبه وأعماله وتأسيس مملكته . ثم أراد نشرها في جميع أرجاء الامبراطورية فأمر بترجمتها الى الآرامية وإرسالها الى جميع الجهات ، واكتشفت واحدة منها في أسوان .

أما آرامية النبطيين فقد وصل الينا منها عدد من الكتابات على ارزاق البردي اكتشفت في الفنتين بأسوان ويرجع تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وأغلب هذه الكتابات لليهود والآراميين ، وكان اليهود يكتبون بالآرامية ، وقد وُجدت أكثر من ثمانين قطعة من هذه الأوراق تشتمل على مكاتبات وعقود زواج وبيع وقوائم وتواريخ وقصص من بينها قصة أحيقار .

أما آرامية الكتاب المقدس فقد كتبت بها بعض أجزاء من أسفار عزرا ودانيال ، وهي تدلُّ على مدى انتشار الآرامية بين اليهود في عصر الفرس حتى أصبحت عندهم لغة دينية مقدسة . وقد أُطلق على آرامية الكتاب المقدس اسم الكلدانية .

هذه أمثلة قديمة من الكتابات الآرامية ، وبانتهاء العصر الذي كُتبت فيه ينتهي الطور الأول للغة الآرامية ، وهي الآرامية القديمة . وقد انتهى هذا الطور باستيلاء الاسكندر الأكبر على بلاد الشرق وانتشار الثقافة اليونانية والتأثير فيه . ولذلك لم تعثر اللغة الآرامية على كتابات في هذه الفترة لأنها كانت لغة العوام فقط .

وبعد انحلال دولة اليونانية كانت اللهجات الآرامية قد أخذت تتميز بعضها من بعض ، ويأخذ كل منها شكلاً خاصًّا . وفي هذا الطور يمكن تقسيم اللغة الآرامية الى شعبتين : غربية وشرقية ، وكل شعبة منهما تشمل عدداً من اللهجات كما قدمنا .

فالشعبة الغربية تشمل على :

﴿ اللهجة التدمرية ﴾ : كانت تدمر واحة في صحراء الشام بين دمشق ونهر الفرات . محطًّا كبيراً للقوافل ، فاكتسبت كل تجاريًّا ممتازاً وخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد وسنة ٢٧٠ م . حين خرَّبها أورليوس ، وقد عثرنا على عدد من النقوش التدمرية تصور لنا حياة الأقوام الذين سكنوا هذه الجهة . وقد بلغت أكثر هذه النقوش في تدمر ووجد الباقي في الشمال بالقرب من حمص — و افريقية وروما والمجر ورومانيا الجبلية . وكان أهالي تدمر بدواً من أشراف الآراميين . والغالب أن

النقوش التي وُجدت في إفريقية وفي البلاد الأوربية هي من كتابة التجار والجنود التدمريين وأكثرها من كتابات القبور والتشريف وهي مكتوبة بلغتين : إما اللاتينية والتدمرية . وهي الأكثر ، وإما اليونانية والتدمرية . ولم تكن الكتابة اللاتينية في أغلب الأحيان ترجمة للكتابة التدمرية ، ولكنها كانت تشتمل في أكثر الأحيان على اسم العالم الذي قام بعمل النقش

ونستدل من عدد من هذه النقوش أنه شُيد في مدينة تدمر في القرن الأول للميلاد معبدٌ عظيم لبعل السماء ، يكفي للتدليل على مقدار اتساعه أن نعلم انه تأخر بعد تدمُّر ونقص عدد سكانها بعد انكسار جيش الملكة الزباء ترك أفضل الناس بيوتهم وسكنوا المعبد نفسه واتخذوا لأنفسهم فيه بيوتاً وجعلوا بينها أزقة ، وسدُّوا جميع مداخله إلاَّ واحداً اتقاء لغارات البدو . ونعرف من هذه الكتابات أيضاً أن أهل تدمر كانت لهم قلاع بعيدة عن المدينة نفسها في جانب نهر الفرات لحماية التجارة والقوافل .

﴿ اللهجة النبطية ﴾ . والنبط قبائل من العرب وكان ملوكهم من بني الحارث وأكثر أسماء الأعلام الواردة في نقوشهم عربية مثل حارثة ومالك وملكة وجذيمة وعليمة ووائل ووائلة ومغيرة وذي وعدي وعميرة ويعمر وكعب ومعن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله الخ . . . وقد عُرفت مملكة النبط منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، واردهرت فيما بين القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد ، وكانت عاصمة دولتهم في وادي موسى بالقرب من معان ، ولكنا لا نعرف بالضبط الاسم الذي كان يطلقه النبط عليها لأنه لم يرد في كتاباتهم ، وكان اليونان والرومان يطلقون عليها اسم البترا Petra أي الصخرة أو السلع ، والراجح أنهم أخذوه عن التوراة فقد جاء فيها ذكر سلع اسم القرية أو المكان في بلاد إدوم (ادوميم) جنوب القدس . وقد جاء في القاموس . وسلع جبل في المدينة وهو هذيل وحصن بوادي موسى من عمل الشوبك . والسلع والسلع في الجبل الشواهق وربما سميت عاصمتهم كذلك لقيامها على جبل شامخ الى حسين وكانت قصبتهم عند الحجر وتعرف الآن باسم مدائن صالح ، وهي على بعد ثلاثة أيام بين الحجاز بين معان والمدينة .

وكان نبط البتراء وبُصرى (أي حوران) هم الصلة بين بلاد العرب والغرب وكان منهم أحد أباطرة الرومان وهو فيليب العربي (٢٤٤ — ٢٤٩ م.) وكانت للنبط مملكة قوية يخشاها اليهود وبقية أمم الشام حتى أهل روما. وكان ملك النبط يملك على دمشق فترة من الزمن، ولكنه لم يتخذها قصبة له لبعدها عن محور المملكة ولما كان أهل روما يخشون أن يزداد فيها نفوذ أحد غيرهم، وخاصة أن يبسط النبط سلطانهم على الشرق كله أرسل أمبراطور روما جيشاً لمحاربتهم أمّر عليه كورنيليوس بَلْسا فخرّب مملكة النبط سنة ١٠٦ م. وصارت بلاد حوران التي كانت جزءاً من مملكة النبط تابعة لروما. ومع ذلك فقد استمر العرب في البادية والحضر يكتبون بالخط النبطي، وبقي مستعملاً في كتابة اللغة العربية وقد أخذ النبط الحروف الآرامية المفردة واستعملوها متشابكة وعنهم أخذ العرب الأبجدية في الخط الكوفي.

وقد وُجدت نقوش نبطية كثيرة في البتراء وبُصرى وتيماء والحِجر، وفي شرق الأردن ودمشق وصيدا وبعض جهات من جبل الدروز مثل سيع وهي الآن اسم خربة عظيمة قريبة من مدينة القنوات ومركز السويداء، وكذلك وُجدت نقوش في ايطاليا. وقد كانت أغلب هذه النقوش في المقابر، ومنها ما نقش بالدقة فوق أبواب المقابر المبنية ومنها ما خربش على الرخام. أما المنقوشة فقد وجد أكثرها في مدائن صالح وبعضها في وادي موسى وفي بلاد حوران. وأما الكتابات الخربشة فقد وُجدت كلها في بلاد حوران وخطها قبيح.

وتلحق بالكتابات النبطية الكتابات التي وجدت في أودية طور سيناء وخاصة في وادي المُكتّب، وهي آخر كتابات نقشت بخط نبطي ولغة نبطية.

وتضم اللغة العربية كذلك ثلاث لغات عربية كما ذكرنا من قبل وهي:

(١) اليهودية الغربية القديمة والجليلية: كانت العامة في فلسطين قد نسيت اللغة العبرية في زمان المسيح واتخذت لها لهجة آرامية غربية. وكان المسيح يحدث تلاميذه ويخاطب العامة بهذه اللهجة مع أننا نعرف من الانجيل أنه كان يعرف العبرية. ولم يكن الكتاب المقدس قد ترجم الى هذه اللهجة في أول الأمر فكان الأحبار يقرأون التوراة في الصلاة بالعبرية

فإذا أتموا قراءة فصل ناموا بترجمته الى الآرامية على السامعين حتى أصبحت هذه الترجمة قسماً من الصلاة عند اليهود ثم قاموا بكتابة هذه التراجم مع بعض الشروح ، وانتهوا من جمعها وتصحيحها في القرن الرابع الميلادي وتعرف عندهم باسم الترجوم . وكذلك كتب بها المدراشيم والتلمود الفلسطيني أو المقدسي ، وتحتوي هذه الكتب على شرائع اليهود ، ونبذ عن أحبارهم المشهورين .

﴿ اللهجة السامرية ﴾ : وقد استعمل السامريون — وهم طائفة قديمة من اليهود — لهجة آرامية غربية ترجموا إليها التوراة وألفوا فيها طقوساً وأشعاراً وأدعية خاصة بالصلاة وقد تنازع السامريون مع اليهود وباهى كل منهم صاحبه بأنه على دين بني اسرائيل الصحيح ، ولم يقبل السامريون من الكتاب المقدس إلا أسفار موسى الخمسة وكانت عندهم بالخط العبري القديم ، ولم يقبلوا الخط المربع الذي استحدثه اليهود بعد الجلاء ، فلما دخلت الآرامية فلسطين ترجم السامريون إليها أسفار موسى الخمسة .

وكانوا يدونون لهجتهم بالسامرية وهي قريبة من اللهجة اليهودية الفلسطينية ولكنها مضطربة وليس لها نحو كامل ، وقد ضاعت بعد الفتح العربي لما تعلمت العامة اللغة العربية ولكنهم استمروا في كتابة كتبهم الدينية بلهجتهم هذه بعد أن أصبحت لهجة صناعية مختلطة بكلمات شتى من السريانية والعبرية . ومنذ ذلك الحين ضعف السامريون وتناقص عددهم تدريجياً وهم اليوم قليلون جداً في فلسطين : في نابلس ونواحيها .

﴿ اللهجة الآرامية الفلسطينية المسيحية أو المَلَكية ﴾ : لما إن السيد المسيح خاطب تلاميذه باللهجة الآرامية الغربية . وقد أثبت البحث كذلك أن بعض الأناجيل كتب أولاً باللهجة الآرامية الغربية . ثم نقل بعد ذلك الى اللغة اليونانية ولكن الترجمات — مع ذلك — تشتمل على كلمات آرامية بحروف يونانية . ولكن هذه الأناجيل من الأناجيل لم تصل إلينا ، ولم يصل الينا غير النسخة اليونانية التي ترجمت الى السريانية والسريانية . وأما كتابات بولس الرسول فقد كتبت باليونانية مباشرة . وقد أخذ سكان فلسطين وسوريا هذه الترجمة السريانية للعهد الجديد فاستعملوها في كنائسهم بدلاً عن اللغة العامة . ثم حدث بعد ذلك أن انقسم النصارى الى نساطرة ويعاقبة وملكيين وكان

الملكية يخا[illegible] كثر النصارى الآراميين ، وط[illegible] السبب عداوا عن كتابة لغتهم بالخط السرياني واستبدلوا به خطًّا هو الى حدّ ما مزيج من الخطوط السريانية جميعها . وكان من أهل فلسطين ملكية فتوجوا الكتاب المقدس الى لغتهم وكانت ترجمتهم حرفية دقيقة لم يُراعوا فيها المعاني ولا ترتيب الكلمات في الجملة على قواعد اللغة الآرامية . ولم يبقَ لنا من كتبهم إلا القليل ، وكان إملاؤهم غير واضح وغير مُشكّل بحيث يمكن الاختلاف في نطق كلماته ، هذا هو السبب في أن هذه اللهجة لم تلقَ عناية كافية . وقد ظلّ أصحابها يتكلمون بها في فلسطين حتى انقرضت أيام الفتح العربي .

وتختلف لهجات الشعبة الشرقية عن الغربية اختلافاً واضحاً إذ أنها تستعمل النون في صيغة المضارع الغائب بدل الياء في اللهجات الغربية . كما نلاحظ أيضاً أن النصوص التي وصلت الينا من اللهجات الآرامية الغربية قليلة نسبيًّا ومواضيعها متقاربة ، وهي في الواقع ظروف لا تسمح بتحقيق قيمة هذه اللهجات بالدقة في الوقت الذي احتفظت فيه اللهجات الشرقية عادة أوسع ، فالسريانية مثلاً لها أدب غزير متشعب . وتضم هذه الشعبة :

﴿ اللهجة الآرامية اليهودية البابلية ﴾ : وكان يستعملها يهود العراق الساكنون في بابل وما حولها في أثناء الدين بين القرنين الثاني والسابع الميلادي أي الى أيام الفتح الاسلامي . وقد بقي لنا من التلمود البابلي ، وشرح الكتاب المقدس الذي ألف في مدارس اليهود في بابل فيما بين القرن الرابع والسادس الميلادي ويعرف باسم الجمارا . وقد تأثرت كغيرها من اللهجات الآرامية اليهودية باللغة العبرية .

﴿ اللهجة المندعية ﴾ : وإسمها مشتق من الكلمة الآرامية (م دّع ا) ومعناها المعرفة ، ويسمى أصحابها الصابئين أو المندعيين وهم بقايا من السائل الآرامية كانت تسكن منطقة نهر الأردن [illegible] ت منها الى العراق ، وكان أهل [illegible] ان منهم يسمون أنفسهم الصوريين ، وهم فرقة د[illegible] تعارفين بالله ، خلطوا بين تعاليم [illegible] مذاهب اليهود والنصارى وثنية البابليين والفرس ، وأدخلوا عليها أخيراً بعض تعاليم الاسلام . وهم يدعون أنهم على مذهب يحيى [illegible] كريا « يوحنا المعمدان » ، ولذلك كانوا يغتسلون في الأردن كما كان يحيى يغتسل في [illegible] فلما هاجروا الى العراق أخذوا يسمون كل نهر وكل ماء [illegible] الأردن ،

وقد ذكر القاموس في مادة صبأ : « والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار » . وقال شارح القاموس في الحاشية : « وفي التهذيب هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون ، وقيل هم عبدة الملائكة ، وقيل هم عبدة الكواكب » كما في البيضاوي .

وهم يزعمون أيضاً أنهم أهل المعرفة من النصارى ، وأن عندهم معرفة خاصة من الأشياء الدينية والروحانية ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا نصارى . كانوا يعترضون على النصارى واليهود ، فخالفتهم الكنيسة ، كما خالفهم اليهود . والعهد أو الميثاق بينهم جيد في دينهم ، وهم يعظمون يوحنا ويدّعون أنه المسيح الحقيقي ، وأن عيسى ادّعى النبوّة ، وعندهم كتاب يوحنا .

وكتبهم الباقية كلها دينية وعددها قليل وأهمها كتاب الكنز الكبير . وفيه أجزاء أخذت من اليهودية والنصرانية والإسلام ، ومن قول أهل المعرفة يظن من هنا أنهم بدأوا بجمع رواياتهم ومقرراتهم الدينية بعد فتح المسلمين للعراق لكي يحدّوا أنفسهم من أهل الكتاب . وقد ضاعت كل كتبهم التي ترجع إلى ما قبل الإسلام . أما العصر الذي أُلّف فيه ما تبقى من كتبهم فغير معروف على التحديد .

ولغة المندعية منزلة خاصة بين اللغات الآرامية فهي اللهجة الوحيدة التي لم تتأثر بأي مؤثر خارجي ، ولذلك فإنها تعدّ آرامية خالصة بينما تأثرت اللهجات الآرامية الأخرى بمؤثر خارجية شتى .

ولا يزال للمندعيين بقية باقية حتى اليوم وأكثرهم الصابئة ويسكنون بطائح البصرة ويقيم بعضهم في بغداد ويشتغل أكثرهم بالصاغة والرسوم ، وهم متمسكون بدينهم ويتكلمون العربية والفارسية .

(٥) لهجة الرها (السريانية) هي اللهجة الشرقية التي كانت تتكلم بها ما بين النهرين في الإقليم الذي كانت عاصمته مدينة الرها أو أورفه كما كان العرب يسمونها وهي التي يعرفها الفرنجة باسم Edessa (إدسا) وكانت تحكمها في العهد السابق للمسيحية أسرة عربية يدل على ذلك أسماء ملوكها : أبجر ومعن ونوفل ، فلما ظهرت المسيحية وانتشرت في

هذا الإقليم، واتخذت لغته لغةً أدبية لها، كره أصحابه أن يطلق عليهم اسم الآراميين، وأن يُطلق على لغتهم إسم اللغة الآرامية، ورأوا في هذه التسمية مرادفاً للوثنية والإلحاد، فعدلوا عنه الى الاسم الذي أطلقه عليهم اليونان وهو «السريان» وسمّوا لغتهم «السريانية».

وليس من شك في أن السريانية قد استفادت كثيراً من اتخاذ المسيحية لها لغة أدبية فانتشرت فيما بين النهرين، ثمّ اتجهت في طريقها ناحية الشرق، وكان تسربها الى الغرب ضئيلاً جداً. ذلك أن اللغة اليونانية كانت منتشرة في الغرب، وكانت انطاكية (في شمال سوريا) معقلاً لها. ولم تتمكن اللغة السريانية من دخول فلسطين لأن النزاعات الدينية والسياسية التي كانت قائمة بين سكان بلاد ما بين النهرين قد حفزت الفلسطينيين المسيحيين الى النهوض بلهجتهم وجعلها لغة أدبية ودخلت السريانية مصر ولكن في الأديرة وبين رجال الدين، بخاصة في الاسكندرية. وكانت هناك صلات بين كنيسة الرُها والكنيسة المسيحية في جنوب فرنسا، وهذه الى فرنسا كثير من السريان في عهد الامبراطورية الأولى حوالي سنة ٨٠٠ الميلاد.

أما في الشرق فلم يكن هناك ما يحد من انتشار اللغة السريانية فقد كانت لغة الكنيسة المسيحية في الشرق تتبعها أينما حلّت، كانت لغة المسيحية في فارس ورحلها المبشرون من الناطرة منهم الى بلاد التركستان والهند حتى بلاد الصين. وكانت اللغة السريانية لغة المسيحيين في المملكة الساسانية كما ذكرنا، وما تُدرس الطب والعلوم الطبيعية في مدرسة جنديسابور وغيرها من مدارس السريان في البلاد الفارسية.

وقد دوّن السريان كل أنواع من المخطوط، وكان أقدمها مدوّناً بالخط الاسطرنجيلي، ويسمى بعضهم بخط الانجيل، ويسمى الآخرون بالخط المستدير، فلما انقسم السريان الى النساطرة والمنوفيزيين صنع كل فريق منهم لنفسه خطاً، وصنع ذلك فقد ظلّ الخط القديم مستعملاً وصار المؤلفون يكتبون المخطوط الأربعة: الاسطرنجيلي، واليعقوبي وكان يُطلق عليه اسم السرطا (أي الذي يكتب بسرعة) والنسطوري والملكي، واسم الأخير مستخرج من المخطوط الثلاثة السابقة.

وقد ألّف السريان في لغتهم هذه في جميع فنون الأدب التي كانت معروفة في أيامهم ولكنهم لم يكونوا منشئين أو مبتدعين ، لم ينبغوا في العلوم ولا في الفنون بل ولم ينبغوا في الحرب ، وكان ينقصهم فطنة العرب وذكاؤهم ، فلم تعجب صوامع الرهبان وقسيسوها ولصيقها وغيرها أحداً كالفارابي أو ابن سينا أو ابن رشد ، ولكنهم مع ذلك أجادوا التلمذة لليونان فهضموا ما تلقوه عنهم ، ثم نشروه في لغتهم كما هو أو مع زيادة طفيفة ، وإليهم يعود الفضل في نقل تراث اليونان الى العرب ، فالعلم مدين لهم بهذه التراجم الدقيقة لعدد عظيم من أمهات المؤلفات اليونانية القيمة ، والتي لولاها لضاعت هذه المؤلفات ، يضاف الى ذلك عدد من السجلات التاريخية المتواضعة التي خلفها يوحنا الأنيزومي وديونسيوس التلمحري ويوشع العمودي وميخائيل السرياني وابن العبري ، وهي سجلات تستحق كثيراً من الثناء إذ بدونها ما استطعنا أن نصل الى كل ما وصلنا إليه من معلومات عن تاريخ الكنيسة وعن كثير من الحوادث السياسية التي وقعت أثناء حياة المؤلفين .

والمعروف أن الأدب السرياني قد أثر تأثيراً كبيراً في الأدب العربي وذلك أن العرب حينما ابتدأوا يهتمون بالعلوم والفلسفة اليونانية حاولوا نقلها الى لغتهم كانت الترجمات السريانية هي الواسطة في هذا النقل ، وأكثر المترجمين المشهورين مثل حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق بن حنين ، وحبيش بن الأعصم ، ويحيى بن البطريق ، ويحيى بن عدي ، وابن زرعه كانوا ينقلون عن السريانية .

ومع ذلك فقد يكون من عدم الانصاف أن نصف السريان عامة بأنهم لم يكونوا منشئين أو مبتدعين ، فمن المعلوم أن أهل حران وسميساط قد نبغوا في الفلك وغيره من العلوم الطبيعية وألفوا فيها ، وقد وصل الى أيدينا بعض هذه الفنون كتاب نوادر الفلك لابن ديصان ، والراجح أن غيره من السريان ذكر فيه في فنون أخرى ، ولكن الذي كان يسيطر على الجيل الأول من المسيحيين بعض هذه الفنون الأدبية وما شابهها فيها ، وحبّب اليه أن يقنع بالكتب الدينية ، وقد قصر هذا الجيل إلى إتلاف الكتب غير الدينية ، ومن هنا لم يصل الينا إلا الكتب الدينية والكتب التي لا تتعارض مع المسيحية .

أما عن أسلوب الكتابة السريانية فقد كان المؤلفون متأثرين بأسلوب الكتاب المقدس وكثرت في كتاباتهم الاصطلاحات والاستعارات المستقاة من الكتاب المقدس ، وطبعت بالطابع الديني بسبب الذي أشرنا اليه من قبل من جهة ، ولأن الكثرة المطلقة من الكتّاب كانت من رجال الدين من جهة أخرى .

وقد اختلط اليونان بالسريان اختلاطاً كبيراً ولذلك فإن من المؤكد أن الأساليب اليونانية كانت — تبعاً لذلك — ذات أثر فيما وصلت اليه اللغة . فقد حاكى السريان الأدباء اليونانية في بعض كتاباتهم وقلدوهم في طريقة استعمال الكلمات بل إنهم نقلوا الى لغتهم كثيراً من الكلمات اليونانية ، كما أسموا النحو في لغتهم على غرار النحو اليوناني واتخذوا من الصوائت اليونانية حركات يستعينون بها في كتاباتهم

وظلت السريانية مزدهرة حتى فتح العرب بلاد السريان ، ومنذ ذلك الحين أخذت اللغة السريانية تضمحل وتحل محلها اللغة العربية ، واختلفت لغة العامة من السريان عن لغة الكتابة فظهرت الحاجة الى وضع علم النحو وابتداع طرائق لضبط الكلمات ، وتأليف معاجم للسريانية والعربية ، وبدأ الشعر يظهر في الشعر السرياني فظهرت القوافي ، ولم تكن معروفة فيه قبل ذلك . ولكن سرعان ما اضمحل الشعر السرياني وأصبح أشبه بالآلات تستخرج فيها النفوس لتصف الى حد ما ، وأخيراً دالت اللغة السريانية كلغة للأدب ، وبعد أن كان أكثر الأطباء المسيحيين الذين جاءوا من جنديسابور في مطلع العصر العباسي لا يحسنون العربية ، أصبح الأطباء من له عناية بالتراث اليوناني أو له رغبة في معرفة علوم الأوائل محتاجاً الى تراجم . ولم يبق السريانية أثر إلا عند بعض المتقفين الذين ما زالوا على استعمال هذه اللغة في الكنيسة وخاصة في الكنيسة .

وقد بلغت صحوة المؤلفين السريان الثاني عشر والثالث عشر الميلادي على يد عدد من الأدباء المؤلفين الذين كان الصليبي ابن العبري الكبير وابن العبري ، وتبدلت الحال بعد هذه الفترة . فبعد أن كانت الكتب تترجم من السريانية الى العربية في صدر الإسلام ، أصبحت الكتب تترجم من العربية الى السريانية في هذه الفترة ، وإذا بابن العبري ومعاصريه يترجمون كتب ابن سينا والفخر الرازي وغيرهما من فلاسفة المسلمين من العربية الى السريانية .

وبنهاية القرن الثالث عشر انقرض استعمال اللغة السريانية تقريباً ولم يبق منها اليوم إلاّ بعض بقايا في بعض نواحي العراق الشمالية ، في عدد من البلدان فيما بين بحيرة أورميا وبحيرة وان حيث يقيم بعض النساري من النساطرة ويسمونهم بالآشوريين . وفي شمال الموصل حيث يوجد بعض آلاف من اليهود يعيشون على فلاحة الأرض وفي طور عابدين وهي نواحٍ جبلية في البلاد الفارسية حيث يقيم بعض اليعاقبة . وفي ثلاث من مدن سوريا منعزلة بعضها عن بعض : الأولى مسيحية وهي معلولة . والثانيتان سكانهما من المسلمين وهما جُبّعدين ومخمة . ولكن لهجات هذه البلاد تختلف كثيراً عن اللهجات القديمة إذ أنها جاورت جهات تأثرت بلهجات تركية وعربية وفارسية وأردية ، ومن أهم هذه اللهجات لهجة « القليخي » وهي لهجة يُتكلم بها قرب الموصل ، ولهجة طور عابدين ولهجة بحيرة أورميا وكلها لغات يتكلمها غير المثقفين وليست لغات تأليف غير أن المبشرين الأمريكيين قد اجتهدوا في القرن الماضي في استخدام هذه اللهجة في الكتابة فترجموا إليها بعض الكتب وخاصة [illegible] يل وألفوا فيها بعض الكتب — كما يفعلون في قرن في الهجات الحامية الموجودة في جنوب السودان — ولكن هذه الحركة قد فشلت .

وقد يكون من الأمور الطبيعية أن نتساءل بعد ذلك : متى بدأت العناية بدراسة الأدب السرياني ؟

الأمر الذي لا شك فيه أن الأدب السرياني لم يُدرس دراسة منتظمة إلاّ بعد [illegible] الثامن عشر حين بدأ [illegible] ان السمعاني الماروني المتوفى سنة ١٧٦٨ يكشف عن أكبر هذا الأدب بما نشره في كتابه « المكتبة الشرقية » (طبع في روما بين سنة ١٧١٩ و ١٧٢٨) من تراث الأدب السرياني [illegible] الوثائق نقلها من دير السريان وادي النطرون .

ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقرر أن المستشرقين بدأوا في دراسة الأدب السرياني بعد النصف الأخير من القرن الثامن عشر [illegible] لادي ، نفهم ذلك في كتابه عن تاريخ الأدب اليعقوبي ، وفي الجهود التي بُذلت في [illegible] النحو السرياني بعد ذلك بقليل في القرن السابع عشر .

وقد قامت هذه النهضة بوجه عام على [illegible] ائتلاف الموارنة من السريان ، وكان على رأسهم

عائلة السمعاني التي كان لها شرف تخريج علماء أوربا الذين أغنوا الأدب بما أخرجوه من المخطوطات السريانية ، ولما تكن هذه المخطوطات قد كثرت بعد ، وقد أوقف السمعاني على مكتبة الفاتيكان مجموعة نفيسة من المخطوطات السريانية التي نقلها على عدة دفعات من دير السريان بوادي النطرون . وقد قام علماء الغرب بعد ذلك بنشر نفائس الكتب في هذه اللغة .

ولم يكن قد طبع في ذلك الحين من فهارس المخطوطات الشرقية المحفوظة بالمكتبات العامة سوى فهرس مخطوطات الفاتيكان الذي أعده يوسف سمعان السمعاني واسطفان عواد السمعاني وفهرس مكتبة لورانتيز في فلورنسا الذي وضعه اسطفان عواد السمعاني ولم تكن هذه المكتبات تشتمل — في ذلك الحين — إلا على عدد قليل جداً من المخطوطات السريانية ، ولكن هذه المكتبات أخذت — في القرنين الأخيرين — تبذل جهوداً متواصلة لاقتناء المخطوطات السريانية حتى تجمع لدى كل منها مئات من هذه المخطوطات . وكان حظ المتحف البريطاني منها عظيماً جداً . فقد استطاع أن يحصل على مجموعة ضخمة من هذه المخطوطات كانت نواتها مجموعة من مخطوطات دير السريان بوادي النطرون كما تمكنت هذه المكتبات على أن تضع في متناول الباحثين فهارس وصفية تحليلية كاملة قام بإعدادها ونشرها عدد من أعلام المستشرقين . وقد وضعت عدة مؤلفات في تاريخ الأدب السرياني .

* أولها * : كتاب جورج وايت بكل (ليدن في هولندا سنة ١٨٧٠) ولكنه مختصر جداً

* وثانيها * : مقالة كتبها وليم رايت في الجزء الثاني والعشرين من دائرة المعارف البريطانية تحت مادة « الأدب السرياني » ص ٨٢٩ — ٨٥٠ وقد أعيد طبع هذه المقالة بعد المؤلف في كتاب مستقل تحت عنوان « مختصر لتاريخ الأدب السرياني » نشرت في سنة ١٨٩٤ بعد أن أدخل عليها بعض زيادات لكي تستوعب المطبوع التي ظهرت بعد نشر المقالة والملاحظات التي سجلها المؤلف في نسخته الخاصة .

والكتاب كما قصد مؤلفه مختصر أشد الاختصار ولكن المؤلف راعى الدقة في كل

ما فيه ، وهو غير مقسَّم الى فصول لانه وُضع أولاً ليكون مقالة في دائرة معارف ، وقد تكلم فيه باختصار عن جميع المؤلفين من السريان مرتبين ترتيباً زمنيًّا وسجل لكل واحد منهم أسماء المؤلفات التي عرفها له . وقدَّم لذلك كله بكلمة عن التراجم السريانية المختلفة لكتاب المقدس .

﴿ ثالثها ﴾ : كتاب روبَو دو فال « الأدب السرياني » ضمن سلسلة عنوانها « الآداب الشرقية القديمة » طبع في باريس في يناير سنة ١٨٩٩ ثم طبع طبعة ثانية سنة ١٩٠٠ وثالثة سنة ١٩٠٨ . وقد وجه المؤلف عنايته خاصة عند دراسته للأدب السرياني — الى أثر هذا الأدب بالنسبة للآداب المسيحية بامة فتحدَّث باسهاب عن تراجم الكتاب المقدَّس وعن الشهداء الى غير ذلك .

والكتاب مقسم الى قسمين : يشتمل القسم الأول على أعمال السريان الأدبية ، وذلك ، من سبعة عشر فصلاً تحدث فيها عن كل ما تناوله السريان في كتاباتهم من الفنون الأدبية . ويشتمل القسم الثاني على فذلكة مختصرة عن سير المؤلفين من السريان مرتبة ترتيباً زمنيًّا اتبع فيه منهج البحث . ويتكوَّن هذا القسم من ثلاثة فصول : تكلم في الفصل الأول عن المؤلفين حتى مطلع القرن الخامس ، وتكلم في الفصل الثاني عن كتَّاب القرنين الخامس والسادس ومطلع القرن السابع حتى الفتح العربي ، وتكلم في الفصل الأخير عن الكتَّاب الذين ظهروا إبان الحكم العربي حتى القرن الثالث عشر واختتمه بالحديث عن ابن العبري .

﴿ ورابعها ﴾ : كتاب بوركيت الذي هو محاضرات عن كنيسة المتكلمين السريانية (لندن ١٩٠٤) ويشتمل على ما يقرب من مائة صفحة من نواحي الأدب السرياني .

﴿ وخامسها ﴾ : مقالة عن « الأدب الآرامي » والقصد منه الأدب السرياني (ص ١٠٣ — ١٣٠) ونشرت سنة ١٩٠٦ ، وطبعت طبعة ثانية سنة ١٩٢٥ وهو قسم من مقدمة تاريخ الأدب السرياني في عصوره المختلفة . ولم يمنح بوركيت ولا زملاؤه فيها كتباه سبباً خاصًّا .

﴿ وسادسها ﴾ : كتاب ابرو « الأدب السرياني » ضمن كتاب عنوانه « الآداب الشرقية المسيحية » نشر في سنة ١٩١٠ (ص ١٠٣ — ٧١٠) ثم طبع ثانية سنة ١٩١٩

وقد جاء البحث مختصراً لأنه جزء من كتاب يتناول الآداب المسيحية الشرقية باختصار، وقد راعى فيه المؤلف الترتيب الزمني أيضاً .

﴿ وسابعها ﴾ : مقالة شابو عن اللغة السريانية وآدابها في الجزء الرابع عشر من دائرة المعارف الكاثوليكية (ص ٤٠٨ — ٤١٣) وقد حذا فيه حذو من سبقه من تلخيص الأدب السرياني .

﴿ وثامنها ﴾: كتاب بومشتارك عن «تاريخ الأدب السرياني» نشر في بون سنة ١٩٢٢ وهو عبارة عن سجل حرص مؤلفه على أن يجمع فيه كلّ ما استطاع أن يصل اليه علمه من الكتب المطبوعة والمخطوطة . ولكنه ركّز الى حد يصعب معه على غير المتخصصين الاستعانة به . وقد راعى المؤلف في تنسيه الترتيب الزمني كما فرّق بين كتاب اليعاقبة والنساطرة في عرضه لتاريخ الأدب .

وقد نهج المؤلفون في تاريخ الأدب السرياني على عرضه من الناحية التاريخية البحتة مفترضين أن الذين يهتمون بتاريخ الأدب على علم بالأدب السرياني . ولما كان من شأن دراسة تاريخ الأدب السرياني أن تكشف للباحث عن النواحي البارزة من هذا الأدب ، فقد رأينا أن نضمّن كتابنا هذا ترجمة أو عرضاً أو تلخيصاً لما يؤرّخ له حتى نعين القارئ على تفهّم تاريخ هذا الأدب . ولما كان الفتح الاسلامي للبلاد التي تكلم أهلها السريانية وما تبع ذلك من تغلغل اللغة العربية بين أهلها ، قد فرّق بين فترتين متميزتين في الأدب السرياني ، فقد رأينا أن نراعي ذلك في دراستنا هذه . فنتناول في الفترة الأولى تاريخ الأدب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي وهو موضوع هذا الكتاب . ونتناول في الفترة الثانية تاريخ الأدب السرياني من الفتح الاسلامي الى العصر الحاضر ، وسنخصه بكتاب آخر .

الباب الاول

تمهيد

كانت مملكة الرُّها واقعة في الجزء الشمالي الغربي من إقليم ما بين النهرين وكانت لغتها هي اللهجة الآرامية الشرقية التي أطلق عليها اليونان اسم « السريانية » . وكانت الرُّها مملكة مستقلة في القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعد الميلاد . والراجح أن أصل ملوكها من العرب كما تدلُّ عليهم أسماؤهم : معن ووائل وأبجر ، إذْ يظَنُّ أن بعض رؤساء العرب دخلوا مدينة الرُّها — كما دخل غيرهم حمص وتدمُر — وصاروا ملوكاً على الشعب الآرامي فنسوا لغتهم مع مرور الزمن وتعلموا لغة الشعب الآرامية ، فلما دخلت المسيحية الرُّها في أوائل القرن الثاني للمسيح ، وتبع ذلك بناء الكنائس فيها ، واتخاذ المسيحيين لغتها لغة لهم ، وتوجهوا إليها الكتاب المقدس ، أصبح للغة السريانية مركز ممتاز ، وصارت الرُّها منذ ذلك الحين مركز الحياة الثقافية المسيحية باللغة السريانية .

وإذاً فنحن نستطيع أن نميز في هذا القسم بين طورين مختلفين من الأدب .

﴿ الطور الأول ﴾ : ويتضمن الأدب السرياني الذي وُضع قبل أن تصبح الرُّها مركز الحياة الثقافية المسيحية .

و ﴿ الطور الثاني ﴾ : ويتضمن الأدب السرياني الذي أثر عن العصر المسيحي الذي سبق ظهور الإسلام .

الأدب السرياني قبل انتشار المسيحية

ليس ثمة شكٌّ في أن بعض الأقوام من اليهود والوثنيين كانوا يُقيمون في المناطق التي كانت — فيما بعد — موطن المسيحية السريانية . وليس من شك أيضاً أنه كانت لهؤلاء الأقوام كتابات باللهجة المحلية فقد حلَّت اللغة السريانية محلَّ العبرية عند اليهود الساكنين في تلك المناطق ، كما كانت لغة الدين والأدب والدم في حين أن معقل الوثنية فيما بين النهرين ،

ومهما يكن من أمر هذه الكتابات فقد عرفتها المسيحية في العالم وحالت بينها وبين الخروج من معقلها لأنها لم تكن لتثير المسيحية ، وليست كذلك في هذه العصور الاسلامية المتأخرة حين قضى المغول عليها نهائيا سنة ١٢٥٨ م ، وبذلك خسر العالم من ثمار حضارة هؤلاء الأقوام .

وقد بقيت لنا آثار متفرقة قليلة من هذه الكتابات هي كتابات قبور ، وبعض كتابات مطولة اشتملت عليها دار المحفوظات الملكية في الرها وخطاب دمار سرابيون الى ابنه سرابيرم وقصة أحيقار وزير سنحاريب ، وبعض مقطوعات من الشعر الديني وثني يُدعى بابا الحرّاني . وسنتناول هذه الآثار في شيء من الايجاز .

﴿ كتابات القبور ﴾ : أقدم الكتابات السريانية التي ثبتت لنا هي كتابات قبور نقشت على أحجار ، ولم نعثر حتى الآن إلاّ على عدد قليل منها ، ومع أن [illegible] إلاّ أن جمهرة المشتغلين بالدراسات السامية قد اتفقت على أنها ترجع الى القرنين الأول والثاني بعد الميلاد .

ويرجع الباحثون أقدم عدد النقوش الى النصف الأول من القرن الأول [illegible] عليه (ص د ن م ل ك ن ا) أي الملكة صدّان ويبدأ أنه كان يكتب بكلمة « هذا قبر ... » كما هو مألوف في نقوش المقابر المكتوبة باللغة السامية إلاّ أن الراجح أنه نقش مقابر . وقد عثر عليه سنة ١٨٦٣ وهو محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس .

والنقش الثاني غير مؤرخ أيضاً كالنقش السابق ، إلاّ أن الراجح يرجعه الى القرن الثاني ، وهو أطول من النقش السابق ، وقد كتب عليه ([illegible] ش ر ت د ش ر د و ب ر ع ن و) وهو كالنقش السابق يبدأ بكلمة « هذا قبر ... » إلاّ أن الراجح أنه مقابر أيضاً . وهو منقوش [illegible] في حجر بجهة شُمَّنيت فيما بعد بدير يعقوب واقعة في الناحية الجنوبية [illegible] وكان هو وما حوله من الآثار الى وجود هذا النقش من [illegible] Von Helmuth Moltke

الغالب أن الآثار التي تقوم في هذه الجهة وثنية الأصل ولكنها لا يعرف القوم أقيمت من أجله ، ولعلها كانت مقابر لعائلة كبيرة ، ولعلّ النقش الذي كُشف عنه النقو

برج ... رة والذي حملنا على ترجيح أن هذه الآثار وقف ... ة شمس » هو اسم وثني ، وعلى الرغم من أننا نعلم أن المسيحيين قد سمّوا أبناءهم بعض الأسماء الوثنية . إلا أن البناء ليست به معالم تدل على أن المسيحية قد ظهرت في الرُّها عند بنائه . ومع أن انتشار المسيحية في الرُّها في النصف الأخير من القرن الثاني أمر مؤكد ، إلا أن الأدلة المادّية على وجودها متأخرة نوعاً ما . فقد وُجد على نقود أبجر الملقب بالامبراطور كومودوس (١٨٠ — ١٩٢ م) وهو أبجر سوبروس صليب عرضاً عن النارة القديمة وهي الهلال والنجمة .

وأول إشارة إلى وجود كنيسة في الرُّها كان سنة ١ ... عندما ذكر أن مياه نهر دیصان ملأت على كنيسة المدينة ، وأول مرة ذكر فيها اسم ... لمدينة الرُّها كان في سنة ٢١٣ م . ولا تشتمل هذه الطرفة على دليل يمكننا من تأريخ النقش . ولكن القرائن التاريخية توحي بأنه نُقش في النصف الآخر من القرن الثاني ، وليس في هذه الطرفة ما يتعارض مع هذا الرأي .

والنقش الثالث غير مؤرخ أيضاً وهو أطول من ... يقوب السابق . وتدل المقارنة بين خطوط النقشين على أن هذا النقش أحدث من نقش يقوب ، وكان G. Bades أول من أشار اليه ، وهو موجود في قلعة الرُّها الواقعة في الناحية الجنوبية الغربية من المدينة وفيها تتوسم جدران شاهقة ، وقد نقشت في أعلى الجدران الخارجية نقوش متفرقة يصعب الوصول اليها ، ولا يستطيع الانسان بواسطة المنظار المكبر إلا أن يدرك أنها كتابات عربية ولكنه لا يستطيع أن يقرأ منها شيئاً ، ويوجد داخل القلعة كتابات كثيرة يتعذر الوصول اليها أيضاً ، ويقوم بالقرب من الطرف الشرقي على بعد قليل من الجدار عمود ... يدعى فان عليه صورة بكرسي محمود ، وقد كُتب النقش على الجزء الغربي منه على سطوحه المتسعة ... يستطيع الانسان أن يقرأه بالعين المجردة ... ربعه كلمات وحروف ناقصة في بعض الأماكن ... لخاصة اسم صانع النقش أو الذي ... له ، وفيها يلي ما لاح لنا يتضمنه النص : ... فلان ابن فلان صنعت (أو أقت ...) هذه الصورة ... العمود والصورة التالية أعلاه ... لملكة ابنة معن »

ويدلُّ هذا النقش على أن هذا العمود قد خصص لأميرة ، أو لعله أُقيم لملكة هي ابنة رجل يدعى معن ، ونستنتج من ذلك أن هذا العمود والنقش المكتوب عليه يرجعان الى عصر استقلال إقليم الرُّها في عهد أسرة أبجر ومعن المالكة ، لأننا لا نعتقد أن أحداً لم يجد ما يدعوه الى إقامة نصب لأميرة من البيت الحاكم بعد ضم الرُّها الى أملاك الدولة الرومانية . ونستطيع أن نحدد العصر الذي أُقيم فيه هذا النقش اذا رجعنا الى ما ورد في تاريخ الرُّها عن سنة ٢٠٦ م أن أ[illegible] بنى قلعة بحديثه » والراجح أن المقصود بهذه القلعة قلعة الرُّها . أما أبجر المذكور فهو أبجر الثامن ابن معن الذي حكم فيما بين سنتي ١٧٦ و٢١٣ وربما كانت إقامة العمودين بعد بناء القلعة أي بعد سنة ٢٠٦ م . إما في عصر أبجر وإما في عصر ابنه معن التاسع آخر أمراء الرُّها أي بين سنتي ٢٠٩ و ٢١٦ م . وتكون شلمث هي ابنة معن التاسع . لكن هذا النقش — من جهة أخرى — من وصف معن بصفة ملك ربما دلَّ على أن [illegible] هذا النقش غير معن التاسع الملك ، ويكون العمودان قد أُقيما قبل بناء القلعة بزمن طويل وبخاصة إذا لاحظنا أن النقش والعمودين ليس بهما أي أثر للمسيحية .

ومهما يكن من أمر هذه النقوش التي تحدثنا عنها وأمثالها من نقوش المقابر فإنها لا تشتمل عادة إلاَّ على نصوص قصيرة لا تضيف كثيراً الى تاريخ الأدب ، ولكنها في الواقع دليل على أن اللغة السريانية كانت تكتب بحروف سريانية في إقليم الرُّها قبل دخول المسيحية اليه بزمن قليل .

[illegible] ملوك الرُّها [illegible] تعوزنا الأدلة على أن هذه اللغة المحلية التي كانت تستعمل في الرُّها وما جاورها [illegible] هي اللغة السريانية ، فإن كل ما بقي لنا من الكتابات عن هذه البلاد — على قلتها — مكتوب باللغة السريانية . وكانت الرُّها قاعدة الجزء الشمالي من بلاد بين النهرين ، وكان يحكم هذا الاقليم — بين سنتي ١٣٢ قبل الميلاد و ٢١٦ ميلادية — أسرة من أصل عربي ولكنها تطبعت الى حدٍّ بعيد بالحضارة الآرامية التي تحيط بها ، وخضعت لما يسير عليه الآراميون من عادات ، وكانت العادة قد جرت في دول آسيا [illegible] سجل [illegible] أهم الحوادث التي تقع ويحفظها في دار

للمحفوظات ، ولم يشذّ ملوك الرُّها عن هذه العادة ، فقد كانوا يدوّنون ما يقع أثناء حكمهم من حوادث ويحفظونه في سجلات بدار المحفوظات بالديوان الملكي .

وكان من بين ما سُجّل وحفظ في دار المحفوظات خبر فيضان نهر ديصان الذي اجتاح مدينة الرُّها في شهر تشرين الثاني سنة ٢٠١ م . في عهد أبجر الثامن (١٧٩ — ٢١٦ م .) ، والذي كان من جرائه أن تصدّعت كثير من مباني الرّها الجميلة ومن بينها « كنيسة المسيحيين » ، وقد اضطرّ الملك الى ترميم كثير من المباني وتشييد مبان جديدة ، فلما تمّت أعمال الاصلاح ، أمر الملك كاتبيه « ماريب برشمش » و « قيّومـا برحشطـا » بتسجيل هـذه الكارثة فسجلت سنة ٢٠٦ م . وحفظت بدار المحفوظات في مجموع الوثائق الرسمية التي ألّفت فيما بعد الى سجلات أساقفة مدينة الرُّها التي أنشئت حوالي سنة ٣١٣ م . فلما كان منتصف القرن السادس الميلادي كان هذا النص أحد المواد التي جمعت لتكوّن مختصر تاريخ مدينة الرُّها .

ولهذا النص أهمية خاصة عند المؤرخين المتأخرين لأنه يدل على أن المدينة قد خلب الى الرُّها في عهد أبجر التاسع ، وله بذلك أهميته في تاريخ الأدب . وهو أقدم النصوص المؤرخة ، وهو الى جانب ذلك نص لغوي مطول باللغة السريانية في فجر ما بين النهرين .

وقد نشر السمعاني كتاب مختصر تاريخ الرُّها بالسريانية في كتابه المكتبة الشرقية (ج ١ ص ٣٩٠) وفيها قصة الفيضان . أما بروكلمان فقد نشر قصة هذا الفيضان بالسريانية في كتابه « اللغة السريانية » (طبعة برلين سنة ١٩٠٨ ص ٢٩ من المختارات) والنص هذا النص :

في هذا الثلاث عشرة وخمسمائة عام الى الاسكندر ، في هذه الشهر الذي هو بين الملك في شهر تشرين الثاني (أي نوفمبر) نبع المياه من تحت القصر الملكي الذي في أبجر الملك الكبير ، اشتدّ وارتفع لساعته الأولى وملأ كل الجوانب وفاض عليها ، وأخذت الخزائن والأروقة والقصر الملكية تمتلىء بالمياه . فلما رأى ذلك من كان أبجر الملك صعد الى الطبقة التي تعلو هو قصره حيث يقيم عمال المملكة . يسكنون ، وبعد

كان الحكماء يفكرون : ماذا يصنعون بهذه المياه الغزيرة التي تراكمت ، حدث أن هطل مطر غزير قوي بالليل ، وفاض ديسان في غير موعده ، وجاءت المياه الغربية فوجدت القناطر مقفلة بحديد كبير مصنع وبمصاريع حديدية مثبتة ، فلما لم تجد المياه لها مدخلاً تكوَّن بحر كبير خارج أسوار المدينة . وانبثقت المياه تتسرَّب من بين حوائط سور المدينة . وبينما كان أبجر الملك نائماً بالبرج الكبير المسمى برج الفرس رأى المياه على ضوء مشاعل النار ، وأمر فوُثقت الأبواب والقناطر الثانية السور الغربي للمدينة من حيث ينبع النهر . وفي تلك اللحظة اندفعت المياه الى سور المدينة الغربي ودخلت الى المدينة وهدمت القصر الكبير الجميل (قصر) مولانا الملك واجتاحت كلَّ ما وجدته أمامها من مباني المدينة الرقيقة الجميلة وكل ما كان قريباً للنهر من شماله وجنوبه . واتفقت كذلك هيكل كنيسة المسيحيين . وهلك في هذا الحادث أكثر من الثمين من الناس كان كثير منهم نائمين بالليل فطغت عليهم المياه فجأة وماتوا خنقاً ، وعندئذٍ امتلأت المدينة بأصوات العويل . فلما رأى أبجر الملك تلك الخسارة التي وقعت ، أمر أن يبعد جميع عمال المدينة أكواخهم من عند النهر ، وأن لا يبني أحد له كوخاً عند النهر . ووضعت الأكواخ بحكمة المهندسين والعلماء كما يسمح عرض النهر ، وزادوا على مساحته القديمة ، ومع أن المياه كانت كثيرة وقوية إلاَّ أن عرض النهر كان صغيراً لأنه يتلقى مياه خمسة وعشرين فرعاً يجمعها من جميع النواحي .

وأمر أبجر الملك أن جميع الذين يقيمون في الأروقة ويعملون أمام النهر لا يبيتون في أكواخهم من شهر تشرين الأول (اكتوبر) حتى نيسان (ابريل) إلاَّ رجال الشرطة الذين يحرسون المدينة لأن خمسة منهم يبيتون بالسور فوق المكان الذي دخلت منه المياه الى المدينة ليلة وقت الشتاء لكي يحسوا ويسمعوا في الليل صوت المياه الغربية التي قد تأخذ في الدخول الى المدينة . وكل من يسمع الصوت ويهمل في الخروج ، فإنَّ المياه تنتقم منه لأنه أهمل أمر الملك . ووضع هذا الأمر هكذا من ذلك الوقت الذي صدر فيه الى أبد الآبدين . وعندئذٍ أمر أبجر الملك فبني له بناء لقر ملكه في الشتاء حيث يبيت نهاراً وكان يسكن هناك طوال فصل الشتاء ، وكان ينزل في الصيف الى القصر الجديد الذي

بُني له على رأس النبع . وكذلك بنى أشرافه مبانى لاقامتهم الى جوار قصر الملك في السوق الكبير المسمى « بيت سحرايا » ، ولكي يستقر السلام الأول في المدينة أمر أجير الملك فرُفعت أعباء الضرائب عن الذين في داخل المدينة ، وعن الذين يسكنون القرى والمعاسكر ورفعت الضرائب عنهم خمس سنوات حتى تغنى المدينة بالرجال وتزدان بمبانيها »

﴿ خطاب مارا بن سرابيون ﴾ : أثرت ثقافة اليونان على السريان تأثيراً ظاهراً في سوريا الداخلة وهي سوريا الغربية ، ولكنها لم تكن لغة التخاطب وإنما كان تعليمها قاصراً على طبقة المثقفين من الأغنياء ويؤيد ذلك ما رواه صاحب سيرة رَبُّولا أسقف الرُّها (٤١٢ — ٤٣٥ م .) « أنه (أي ربولا) تعلم اليونانية كسائر أبناء الأغنياء في مدينتهم قنسرين » — وقد نقلت اللغة اليونانية الى جانب السريانية لغة أدبية في تلك المقاطعات عدة قرون بعد المسيح . وكان بعض الكتّاب من السريان يؤلفون باللغة اليونانية ثم تنقل كتبهم الى اللغة السريانية لكي يفهمها سائر الناس . ومن الذين كتبوا باليونانية لوقيان السمشاطي (نسبة الى مدينة سميسات) في القرن الثاني . وأوسابيوس القيصري (من مدينة قيصرية) المتوفى سنة ٣٤٠ م . وطيطوس البُصري المتوفى سنة ٣٧١ م وسويرس الانطاكي .

وكان من تأثير اليونانية على السريانية أن استعمل السريان في كتاباتهم المصطلحات اليونانية ، نجد ذلك واضحاً في الخطاب الذي أرسله مارا بن سرابيون الى ابنه سرابيون .

ولم تكشف لنا النصوص السريانية التي بين أيدينا عن مؤلف هذا الخطاب ، وكل ما نعرفه عنه مستقى من خطابه الذي لا يمكننا تأريخه بالضبط ، فهو خطاب خاص من جهة ، وليست لدينا معلومات عن الحوادث التأريخية التي ورد ذكرها في الخطاب من جهة أخرى ، ومع ذلك فقد ذهب المستشرق الانجليزي كيوريتون ناشر الرسالة الى أنه ليس من المحقق الواردة في هذا الخطاب ما يحول دون القول بأنه كتب فيما بين نهاية القرن الأول ونهاية القرن الثاني . وإليك ترجمة الخطاب :

« سلام مارا بن سرابيون الى سرابيون ابني . عند ما كتب اليّ أستاذك ومُربّيك ، وأطلعني أنك على صغر سنك مثابر على الدرس ، حمدت الله أنك وأنت حدث صغير بغير

مرشد فارجو أن تبدأ بداية طيبة، فكان ذلك عندي مطيباً لخاطري أن أعلم عنك أيها الفلاح الصغير هذا النذر الكبير، والنجابة العظيمة، التي يصعب أن تبقى عند الكثيرين، لهذا كتبت اليك هذه الرقعة عما استفدتُه من العالم؛ فقد تتبعت حياة الناس، وقطعت في العلم شوطاً فوجدتُ أن التعاليم اليونانية كلها قد تحطمت عند ميلاد الحياة. فاحترسْ إذاً يا بنيَّ مما يصلح للاندراس، وفكِّرْ في الكتاب، وابحث عن الحكمة، فكِّرْ كذلك في تثبيت ما بدأتَ به. وتذكَّر أوامري بانتباه، وكن كالرجل الهادىء الذي يحب النظام، فالنظام وإن بدا لك شديد المرارة يصبح عندما تأخذ فيه زمناً قصيراً، وهذا هو نفس ما حدث لي.

أن الإنسان قادر عند ما يرتحل عن أهله، ويتمكن من الاحتفاظ بعادته، ويفعل كل ما يجب عليه بدقة، فإنه بذلك يكون الرجل المختار الذي تحلُّ عليه بركة الله، ولن يوجد من يتجاسر عليه. فإن أمثال هؤلاء الناس الذين يلجأون الى النظام يريدون أن يتخلصوا من قضاء الزمن. والذين يتمسكون بالحكمة يحتفظون بالأمل في البدل، والذين يقومون على الحق يظهرون سموّ فضائلهم، والذين يتجهون بالفلسفة يتكررون في الطرب من فوز هذا العالم. أما أنت يا بنيَّ فتدثَّرْ هذا كله بحكمة، كرجل كريم يريد أن يحيا حياة نقية، وإياك أن تضيع الثروة التي يتعطش إليها الكثيرون. واجعلْ همَّك استباق الثروة غير الحقيقية فإن الناس لا يتوقفون عند ما يحصلون على أمانيهم، حتى ولو تسنوا على صلاحهم. وجميع هذه الأشياء التي تظهر لك في العالم ما هي إلا تلاشي بعد فترة، فإنها مدُّ الزمن وجزره.

وإن الأمل في الطيران — التي تدعوه الناس على أنها — يحرس الأشياء التي تفرحنا، فإنها تستقبل لنا الآلام بابتسامة ولا المحبوبين ... في كلا الطرفين أن في ذلك ... وحب الخير كريه إليه ... لكنا مدفوعون ... بالعادة ... نحن نتعب في إصلاح أنفسنا ونحزن من جراء رداءته.

وقد سمعت عن أسلافنا، أنهم لما عادوا ... ، وقالوا كأنهم يلومون الزمن: «لقد أبعدنا ... ن قومنا، ولا سبيل الى العودة ... مدينتنا لرؤية أهلنا

واستقبال آلهتنا بالتسبيح . وقد تجدر بذلك اليوم أن نسميه يوم المسرة ، فقد استولى عليهم جميعاً على السواء ثم واحد قتيل ، كانوا يتكررون ولم يتذكرون آباءهم ، ولا يتذكرون حنيناً الى أمهاتهم ، لقد حزنوا على بنيهم ، وتألموا لفراق خطيباتهم .

ولما سمعنا بنبأ أصحابنا الأولين الذين ذهبوا الى ملوقيا ، استرقنا إليهم السمع ، وأصغينا الى همومهم همومنا ، فاشتد ثمنا معاً عندئذ . وازداد بكاؤنا حتى على ضياعنا . وجثمت الظلمة الى الكآبة حسرتنا ، ومنذ حين ونحن نضيق بالهموم ، حتى لم يستطع أحدنا أن يدفع همومه التي أكمن عليه . وأخذ يتنازع فينا حب الحياة وألم الذكرى . وأخذ سوء الظن يقودنا على غير هدى ، فرأينا إخواننا وأبناءنا أسرى ، ونساءنا رفيقاتنا الذين ماتوا ودفنوا في غير أرض . كما أهتم كل امرئ منا بنفسه ، حتى لا تأتي عليه كارثة فوق أخرى ، أو تدرك منه المنية سابقتها

ولكن ماذا يجدي قوم حمر ... اعتدوا على ما هم فيه ؟

أما أنت أيها الطبيب ، الا يحزنك أن تفجع بك وبقتلك من مكان الى مكان ... وأنت الماهر ... يا صاحبه ... تسلم أن ... من عند ... الكآبة ... الصالحين يجدون بكل ما ... من الآلهة والأنبياء ... أخذ ذلك من نفسك موعظة . فما أكثر الذين لا يهم ... ذلك ولكنهم يحبونك كأبنائهم ، وما أكثر النساء اللاتي يستقبلنك كأنك حبيبهن ، فما تجد ... إلا ذاك غريب ... ولا افتقدت محبة كثير من الناس لك إلا لأنك صغير .

... الأرض وبالسلام الزكي الذي تؤدي اليه ... ونحن ... ونهنئ ... وإني لأتعجب من كثيرين ممن يملك ... أبناءهم ... لهم ... قوم يقتنون الثروة ... أدهشني أن ليس لهم ... إن الفالين ... في ... الخيبة هذا .

قال لنا حكيم الناس ... الانسان ... أو عن أي الأشياء يتحدث ... على أنها هي ... كنز محمولاً ... سعيدة ؟ ذهباً ... للذهب . أو على الحسنون ... أنها

سفساحة . أو على المدن ؟ فإنها عرضة للتخريب . أو على العظمة ؟ فإنها عرضة للإذلال . أو على الكبرياء ؟ فإنها محطمة . أو على الجمال ؟ فإنه ذابل . أو على القوانين ؟ فإنها زائلة . أو على الفقر ؟ فإنه محتقر . أو على البنين ؟ فإنهم يموتون . أو على الأصدقاء ؟ فإنهم كاذبون . أو على الشرف ؟ فإن السفينة تسبقه . ومن هنا فليفرح بملكه رجل كدارا ، وبثرائه رجل كبوقراص ، وبشجاعته رجل كأخيل ، وبامرأته رجل كأجاممنون ، أو بنسله رجل كبريامس ، أو بمهارته رجل كأرخيدس ، أو بحكمته رجل كسقراط ، أو بعلمه رجل كتيتاغوراس ، أو بذكائه رجل كبولوميدس ، فحياة الناس يا بني زائلة عن العالم ؛ أما مجدهم وفضائلهم فباقية إلى الأبد .

أما أنت أيها الابن الصغير فاعترف شيئاً لا يبلى ، فإن الذين يتخلقون بتلك الصفات يتواضعون ويحبون ، وهم جديرون بلقب « الطيب » . وإن لقيك شرٌّ فلا تلمِ الناس ، ولا تنضب على الله ، ولا تأسف على زمانك . فإنك إن أقمت على هذا التعقل فلن يكون جزاؤك الذي تلقاه من الله قليلاً ، ذلك الجزاء الذي لا يعتمد على ثروة ولا هو قريب من الفقر . فعش حياتك بغير خوف لكي تفرح حينما تريد ، فإن الطوف والاعتذار التفيهي ليس من شيمة الحكماء ، وإنما هو لأن الذين يسيرون بغير قانون . فإن الانسان لا يجرد من حكمته أبداً كما يجرد من أملاكه ، فإنه وراء المعرفة أكثر من سبيلك الى الثراء . فكلما ازدادت الثروة كذلك تكثر الرذيلة ، فلقد رأيت أنه أينما تكثر الحسنات ، كذلك تقابلها السيئات ، وحيث تكثر اللحم المسرات تتم أيضاً تتجمع المساءات ، وحيث تكثر الثروة تهلك أيضاً مرارة الصفوات الكثيرة . فاذا فهمت ذلك ووعيته بدقة ما تخلى الله عن عونك ولا تخف الناس من حولك . يكفيك ما استطعت اقتناءه ، فان أمكنك أن تعمل بمقتضيات الفضيلة بشكل يتسق وبالصواب ، لأن أحداً لن يحقد عليك وتذكر أيضاً أنه لن يزيد حياتك التي هي قصيرة ، فلن يسعى أحد بعد موته « رب أملاك » . وان القوم الذين يذرفون من أجل التفف بهذه الأمور ، وهم لا يعلمون أن الانسان انما يقيم في أملاكه كغاير سبيل وهم خوفاً من عدم بقاء هذه الأملاك — يتركون ما لهم ويطلبون ما ليس لهم .

وأي شر آخر يجب أن نقوم عند ما يساق الحكماء بالقوة على أيدي الظالمين ، وتخلص

حكمتهم بتهمة باطلة ، ويظلم ذكاؤهم بغير دفاع . فماذا جنى الأثينيون من قتل سقراط ؟ لقد أصابهم الموت ونزل عقاباً لهم . أو ماذا جنى أهل ساموس من إحراق فيثاغورس ؟ لقد غطت الرمال ديارهم كلها في ساعة واحدة . أو ماذا جنى اليهود من قتل ملكهم الحكيم ؟ لقد ضاع ملكهم منذ ذلك الزمن نفسه . لقد عوّض الله حكمة هؤلاء الثلاثة : فإن الأثينيين ماتوا حينما جاعوا ، وغطى البحر أهل ساموس فلم يستطيعوا له دفعاً ، وحلّ الخراب باليهود وطُردوا من مملكتهم ، وتشتتوا في كل مكان . لم يمت سقراط ، بل بقي في شخص أفلاطون ، ولم يمت فيثاغورس أيضاً من أجل قتال عارا . وكذلك لم يمت الملك الحكيم من أجل الشرائع الجديدة التي وضعها .

أما أنا يا بنيّ فقد جربت على أي بؤس فظيع يقوم الناس ، وتعجبت من أن الشرور التي تحيط بهم لم تتغلب عليهم ، بل ولم تكفهم الحروب ولا الأمراض ، ولا الشيخوخة ، ولا الفقر ، ولكنهم كالحيوانات الشرسة يفتك بعضهم ببعض في عداوة ، ويتسابق كل منهم في إلحاق أكبر قسط من الشر بصاحبه ، لقد تجاوزوا حدود الحق ، وتخطوا جميع النواميس الجميلة لأنهم يتخلقون صورة أنفسهم . طالما كان الإنسان رغماً عنه يروقه ، فكيف يستطيع أن يفعل بحق ما يجب عليه ؟ والناس لا يعرفون الاعتدال ، وقلما يمدّون أيديهم إلى الحق والفضيلة ، ولكنهم يعيشون عيشة الصم العمي . أما الحمق فيفرحون ، وأما العاقلون فيجزعون . والذي سده سكر ، والذي ليس له ببذل جهده ليملك ، فالمساكين يسأمون . والأغنياء يختفون ، وكل واحد يضحك من صاحبه . فالمخمورون مخمولون ، والذين أفاقوا نادمون . فمنهم من يبكي ، ومنهم من يغني ، وآخرون يضحكون ، وغير هؤلاء قد انطرحت عقولهم يفرحون بالأموات ، ويهجرون الرجل الذي يقول الحق ، إن الإنسان ليتعجب من هذا الحيوان يتحطم بالاحتقار لا يكون للناس وسيلة واحدة للحياة ، ومع ذلك فهم بهذا يعيشون . يتطلع المرء منهم متى سيتلقى تهنئة النصر في المعركة ، ولا ينظر الشجعان من أجل كم من الرغبات الخاصة يبذل المرء في هذا العالم . ولكني أرجو أن يصيب النسيم قبور هؤلاء الذين ينتصرون بقوتهم ، ويخورون أمام شرهم . لقد جربتُ الناس ، وهكذا جربتهم ، إنهم يتطلعون إلى شيء واحد هو كثرة الثراء ، ومن أجل هذا لا يستقرّ لهم رأي .

ولكنه يختلف باختلاف عقولهم . فان الناس يتحطمون بسرعة عند ما يلتهمهم الألم ولا يتطلعون الى ما في العالم من ثراء واسع ، فان اختلاف الرأي ينتهي بنا جميعاً على السواء الى كل تعب ، لأن همّ الناس تكبير بطونهم ، وهي الرذيلة التي بها يتم الفساد .

ولقد كتبت لك هذا الذي جال بخاطري ، ولا يكفي أن تقرأه ، ولكن يجب أن يتقدم العمل عليه . وإني أعلم أيضاً أنك عندما تتعوّد طريقة الحياة هذه فانها ستسرك كثيراً ، وتكون منزهاً عن الاحتقار الدنيء ، فالناس من أجل الأبناء تتحمل الغنى . فتخلّص اذاً من الحزن الذي يحبه الناس فانه أمرٌ لا يفيد شيئاً ، وادفع عنك الخجل الذي لا ينتج فائدة . لأنه لا حيلة لنا ولا سبيل الى تلافي السيئات وتحمل الأحزان التي يلقانا بها الزمن دائماً بيديه . والأفضل أن ننظر الى هذه الأشياء ، وليس الى تلك الملبسة بالفرح وحسن الأحدوثة . فادفع نفسك الى الحكمة معين كل الخيرات ، والكنز الذي لا ينفد ، وعندها فاسند رأسك واسترح ، لأنها ستكون لك حقاً ، الأب ، والأم ، والرفيق الطيب في حياتك . ولتألف المثابرة والصبر ، فانها هي التي تستطيع أن تواجه يأس الضعفاء من الناس ، فتشد من أزرهم لكي يتحملوا الجوع ، ويصبروا على العطش ويرفعوا كل حزن ، ويتحدوا مع التعب والموت . فتدبّر ذلك كله تنقضي حياة هادئة ، وتكون قرّة عين لي ، وتدعى زينة والديه فإنه في الزمان الأول ، حينما كانت مدينتنا في أوج عظمتها تستطيع أن تعلم أن قوماً كثيرين قد وُصِموا بألفاظ جارحة . أما نحن فقد جعل الزمن لمنتقد أننا قد تقلّلنا من عظمته على التساوي حقاً مناسباً وجيداً ، ولكن الزمن قد رفض أن يتم هذه الأشياء المنقوشة في عقولنا .

ونحن هنا أيضاً في الأسر بحمد الله أننا تقبلنا حب الكثيرين فقد رُضنا أنفسنا على أن تقوم على الحكمة والسرور . وإذا ساقنا أحد بالقوة فهو إنما يقيم الشهادة على نفسه أنه بعيدٌ عن كل الطيبات ، وليتقبل الخزي والعار من هدف نجس للعار . أما نحن فقد أظهرنا صدقنا أننا لا نقصد شراً لمملكة . فإذا سمح لرسلنا بالعودة الى ديارنا فالعدل والصدق فليفعلوا ذلك كقوم رحماء ، ومتعتهم بالطيبين الصالحين ، وسيكون الأقليم الذي يقيمون فيه في أمن . فيظهروا عدالتهم بترك أحراراً . فلنُطِع المملكة التي منحنا

الزمن إيّاها على أن لا تساق كما يساق الظالمون الجبناء ، فإن قُدِّر أن يقع شيء ، فلن يصيبنا ما هو أكثر من الموت ، والموت هو المقدور لنا

أما أنت يا نيرو ، فإذا أردت أن تعلم هذه الأشياء بنهاية فاحكم بالموت أولاً ، وقدِّر جرمَ ما أنت قائم به ، واجعل أن تقضيه واجباً عليك بدلاً من الخشية . إني الآن أفكر في ذلك ، لعلي حينما أريد أن تنسى أن أكون فيما كتبتُ ، وأنت تسلل حاكم ذلك الطريق الذي أساق إليه ، فأخرج بغير حرج من خراب البناء العظيم ، فإني أملي لكي أكون ولا يهمني أي ميت . فإذا جرى شيء عليّ ، أو حمل نفسه إلى منية ، فإن أنصح له ألاّ يفعل ، فإنه سيجد أمامه هناك في طريق العام ؟

وقد تشتمل المخطوطة على عبارة أثرت عن مارا يشير أن أحد النساخ قد رسالة قد أعجب بها فدوّنها في نهاية الرسالة وهي :

« وقد سأله أحد أصدقائه حينما كان أسيراً عنده : بحياتك إلاّ ذكرت لي الذي يضحكك ؟ فقال له مارا : إني أضحك على الزمن الذي يؤدّ إلى سرقة لم يستعره مني من قبل »

وأسلوب هذه الرسالة من عبارتها مقتضبة بحيث تحمل اللفظ القليل المعنى الكثير. ويظهر منها أن مارا كان من معينة شيصات ، وأنه كان وثنيًا من أصحاب الفلسفة الرواقية ومن أتباع زينون ، ويبدو أن الرومان قد اتهموه بالاشتراك في حركة سياسية لا نعلم من أمرها إلاّ أن الروم قد أدانوها ، وقتلوا عدداً من زعماء القائمين بها ، فسارعوا . ويشير المؤلف فيها إلى ما التي شيصات من تخريبه ، وإلى أنه هو نفسه قد زُجّ في السجن مع غيره مكبلاً بالأغلال . . . الذين عاملوهم معاملة جائرة تتنافى مع الكرامة الرومانية ، ثم يتحدث بؤس حالتهم ورفقائه من أبناء مدينته ، وما شعروا به من يأس عندما التقوا معاً في الطريق إلى سجنهم ، ثم يشير إلى تعذيب بيت المال . . .

وإلى جانب ذكر ستر . . ، وإحراق فيثاغورس ، يذكر المؤلف تشتت اليهود نتيجة لانتقام الذي أنزله بهم لأنهم دبروا « الملك الحكيم » على حد تعبيره ، وقد أضفت هذه الفقرة على الرسالة صحة ، وجعلت لها أهمية خاصة ، إذ يشير أنه خيّل فلا جبال

يتابه شخصيـة نادان تماماً في قصة أحيقار وكذلك قصة نهاية يهوذا الاسخريوطي : أنه خنق نفسه كما في انجيل متى أو أنه سقط على وجهه وانشقّ من الوسط وانسكبت أحشاؤه كلها . فإن خلف يهوذا يظهر شبح نادان الشرير الذي كانت نهايته أنه انتفخ حتى انفجر . وكذلك مثل الشجرة غير المثمرة المغروسة على الماء تقابل المثل الذي قاله المسيح عن شجرة التين غير المثمرة التي كان سيدها مُصيرًا على قطعها ، وهناك أيضاً مثل من أمثال أحيقار منقول في رسالة بطرس الثانيـة ، وهو مثل أحيقار في توبيخ نادان : « يا بنيّ ، لقد صرت كالخنزير الذي دخل الحمام مع الأكابر ، فلما خرج من الحمام نظر جورة حمأ فنزل تمرّغ فيها » فانا نجد تفسيره في مثل بطرس « قد أصابهم ما في المثل الصـادق كلب قد عاد الى قيئه ، وخنزيرة مغتسلة الى مراغة الحمأة » وربما كانت هناك نظائر أخرى لقصة أحيقار في كتاب العهد الجديد ، ولـكنا نكتفي بهذا القدر من الأمثلة .

وقد عرف السريان هذه القصة وترجموها الى لغتهم في عصر متقدم ، يدل على قدمها تلك الصبغة الوثنية الظاهرة فيها ، والتي لا أثر لها في النص الآرامي . وهذا النص السرياني هو أصل جميع التراجم التي ظهرت للقصة بعد ذلك .

وقد عرفها العرب كذلك قبل الاسلام وبعده ، أشار اليها الشاعر المسيحي المهلهل عديّ بن زيد في قصيدة له ذكرها التبريزي في حماسته في الباب التاسع والأربعين فيما قيل في غلبة الزمان وإفنائه الأمم :

فبدّ أعدي كم أساءت وغيرت ... بنو رح المنون من سرد وسائد
صروف قباذا ربّ فارس كلبها ... وحشّت بأيديها بوارق آمد
وعلى الحيقار سط جلوده ... وسّنّ في لداته رب مارد

وقد ذكر الجواليقي قصة الديك مع شيء من التحريف في كتابه المعرب (طبعة ليدن سنة ١٨٦٧ ص ٥٤) فقال والحيقار ذلك من ملوك فارس . قال عديّ بن زيد يذكر ملكه :

وسّنّ على الحيقار وسط جلوده ... وبيّنّ في خاداته رب مارد ،

كما أورده صاحب لسان العرب (ج ٥ ص ٣٢٥) .

ويذهب المستشرق الانجليزي رندل هريس في كتابه قصة أحيقار (طبع لندن سنة

١٨٩٨ ص ... من المقدسة) الى أن القرآن قد أشار الى أحيقار في سورة لقمان ، ويرى أن لقمان هو نفس أحيقار ، وحجته في ذلك أن القرآن يتحدث عن كثير من القصص اليهودية والمسيحية ، فليس من المستغرب أن يشير الى قصة أحيقار ، وان كلاً من أحيقار ولقمان يوصف بالحكمة ، وأن كلاً منهما كان يلقن ابنه حكماً يبدؤها بقوله « يا بني » ، وأن بعض حكم أحيقار تشبه بعض الحكم التي جاءت في القرآن على لسان لقمان ، فنجد في القرآن مثلاً قوله تعالى: «واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » (سورة لقمان آية ١٩) بينما نجد في قصة أحيقار «يا بني احفر وأسك ورفق من صوتك وكن بشوشاً ، وامش في الطريق المستقيم ولا تكن أحمق ، ولا ترفع صوتك بالضحك ، فانه كان البيت يبنى بالصوت المرتفع لبنى الحمار بيتين في يوم واحد » . ثم يقول ... باحث المتسرعون والنقاد عن شخصية لقمان ، أهو نبي قد هبط عليه الوحي أم هو حكيم ؟ وانتهى المسعودي وغيره من علماء المسلمين الى انه لم يهبط عليه الوحي ... انما بلغ من الحكمة والبلاغة مبلغاً عظيماً

... لعرب قصة أحيقار بعد الاسلام في مجموعة قصص « ... ليلة وليلة » كما أسلفنا

والقصة التي وصلت الينا عن السريانية تنقسم الى قسمين أساسيين : فيقص المؤلف علينا في القسم الأول أن أحيقار كان وزيراً حكيماً لملك أشور سنحاريب بن سرحدون ، وكان ... كبيراً ومعمراً ورأياً وتدبيراً ، وانه كان ... عقد بتعدد الآلهة ، وكان همه الأكبر ... أن يرزق بولد يخلفه من بعده فوزن ثروته وحكمته فتزوج ... غير امرأة ... ولما كان كنعان الراعي والطير ، فاستشار السحرة والكاهنين ، فأشاروا عليه أن يتزوج ... حتى يرزقه ... ولكن ذلك لم يفده شيئاً ، فاخر الزنية الى ... فأنجبت ... لكن بعد ... تحقيق أمنيته ، فأربى وربّاه يحب ... ويقدمه في حكمة عقاباً له عن سيئته الأولى ثم إنه تضرع الى الله تائباً ، فسمع صوتاً يقول له اخذ ابن اختك وانجعله لك ولداً ، وعلمه علمك وأدبه ... عند ذلك أخذ ... ابن عمه رضيعاً ، فاعتنى به وساعده الى ... مرضعات ، فكبر وشب كالأرز

المسيحية الأول من جراء ذكر اسم « الملك الحكيم » (أي المسيح) ، ومن هنا تجلى روح الرسالة مع الروح المسيحية أن المؤلف مسيحي ومن أجل هذا قُدِّر للرسالة البقاء .

وقد وجَّه مارا من سجنه هذا الخطاب الجميل الى ابنه الذي كان يدرس في مدينة أخرى رداً على خطاب تلقاه من أستاذه يذكر له فيه أن ابنه مثابر على الدرس . وقد نصح الأب ابنه أن يضبط عواطفه ، وحبَّب اليه البحث عن الحكمة وزوجها . وقد نظر المؤلف الى العالم في هذا الخطاب نظرة أصحاب الفلسفة الرواقية من أمثال زينون (٣٣٢ — ٢٦٠ ق . م .) .

قصة أحيقار هي قطعة من التراث الأدبي للأجيال الغابرة ، لتيسر لنا الظفر به قصة أخرى ، فقد عُثر في كثير من الآداب القديمة ، مما ترجمت اليه كثير من اللغات القديمة والحديثة ، وهي إحدى القصص التي كانت شهرزاد تروي الى شهريار والتي عرفناها في كتاب « ألف ليلة وليلة » .

وأقدم ما عثر عليه من نصوص هذه القصة ترجمة آرامية قديمة ، كتبت على إحدى عشرة ورقة من أوراق البردي كشف عنها في جزيرة الفنتين بالقرب من أسوان ، وغيرها من الوثائق التي خلَّفتها الجالية اليهودية كانت تسكن هذه الجزيرة ، وترجع الى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد . أما تاريخ تأليفها فلا يزال موضع بحث ، وكل ما نستطيع أن نقوله إنها أُلفت قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد .

ويقال إنها عُرفت عند اليونان بعد ذلك بقليل فيروي كليانس الاسكندري وهو من كتَّاب القرن الثاني بعد الميلاد أن ديمقريطس (في القرن الخامس قبل الميلاد) قد ألَّف كتاباً في المواعظ الأخلاقية البابلية تماثل ما في قصة أحيقار من حكمة ، وكذلك أشار اليها سترابون . (فصل ١) وتيوفراستس (فيما بين سنتي ٣٧٤ ، ٢٨٦ ق . م .) .

والذي يبدو محققاً هنا تشابه بين قصة أحيقار وبين بعض أسفار العهد القديم ، وهي كتب الحكمة بوجه عام ، وقد دعا هذا التشابه الباحثون المتقدمون الشبه العام بين أخلاقيات أحيقار وبين اسفار الأمثال والجامعة وابن سيراخ . فليس من شك أن هناك مادة مشتركة بين ابن سيراخ وأحيقار ، فقد يجب أن نعد المشابهات الخاصة بنقل الأحمق عن الرصاص وثقل

القضب عن الحجر والرمل ، وثقل الدين عن الرمل والملح ، ومرارة الفقر عن العلقم ؛ يرجح الباحثون أن قصة أحيقار هي الأصل وأنها أقدم من سفر ابن سيراخ .

وهناك تداخل مشابه في التفكير والتعبير بين أحيقار وسفر الأمثال في أمثال أحيقار الأخلاقية ، وهذا التشابه واضح جداً في الكلمات الختامية لتعاليم أحيقار حيث يشتمل النص على جمل على شكل نبوءة أجور في الأصحاح الثلاثين من سفر الأمثال ، حيث رُتبت الحوادث والأشخاص والأشياء في مجموعات عددية . والملاحظ في هذه المجموعات أنها في الصورة الأرميلية لقصة أحيقار مأخوذة — فيما يقال — من مجموعة مستقلة عنوانها « أسئلة أبناء الملك وإجابات أحيقار » وفيها يُذكر اسما ابني الملك وهما نَدَن وبلشان ، ومن هنا نستطيع أن نفهم اسمي ايثيئيل وأكال اللذين في هذا الأصحاح اللذين يُوجه اليهما أجور وحيه . وليس أجور نفسه إلا صورة مزدوجة من أحيقار .

ونستطيع أن نقول إن عدداً من المزامير ذات صيغة خاصة تتناسب مع حالة أحيقار في محنته ، وهناك مزمور أو اثنان متداخلان في اللغة التي كتبت بها القصة التي وصلت الينا بشكل عجيب ، وهو المزمور الحادي والأربعين بعد المائة . وهناك كذلك تعابير كثيرة متشابهة تصف الحياة الآشورية في كل من أحيقار وسفر دانيال ، وفيهما كذلك تشابه لغوي .

وكذلك أشار إلى القسم الأول من هذه القصة مؤلف سفر طوبيا في وقت من الأوقات المحذوفة (ألف حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد) ومن المؤكد أيضاً أنها كانت شائعة في الشرق في غير المسيحية ، فقد أشار اليها كليمانس الاسكندري المصدر الذي أخذ عنه — كما ذكرنا — وكذلك كشف في مدينة تريير Trier الواقعة على الراين عن قطعة من الفسيفساء عليها صورة أحيقار واسمه صنعت بناءً على طلب تاجر سر اسمه Monnus (أي معن) .

وهناك أيضاً تشابه كبير بين قصة أحيقار وبعض أجزاء العهد الجديد ، وأول ما نلحظ منها المثل الذي ضربه المسيح عن العبد الشرير الذي أخذ يأكل ويشرب مع السكارى ، ويضرب الجواري والغلمان ، فإذا عاد سيده جأة قطعه وجعل نصيبه مع المرائين ،

العالي علمه الأدب والكتابة والعلم والفلسفة . وبعد الزمن يروى سنحاريب الملك أن أحيقار قد كبر فيطلب اليه أن يعين من يخلفه من بعده ، فيجيبه بأنه قد اتخذ من ابن اخته نادان ولداً ، فيأمره الملك باحضاره ، فاذا حضر أعجب به وسُرَّ منه ووافق على أن يجعل منه خلفاً لأحيقار . وعند ذلك يأخذ أحيقار في بذل النصح لنادان وإطلاعه على نتيجة التجارب التي اكتسبها من الحياة ، وكان مما قاله له .

يا بني : اذا سمعت كلمة فدعها تموت في قلبك ، ولا تكشفها لغيرك لئلا تذيع جمرة تحرق لسانك ، وتترك الألم في جسدك ، وتكسبك الخزي والعار عند الله والناس .

يا بُنيَّ : لا ترفع عينيك الى امرأة متزينة ولا تشتهيها بقلبك ، فانك إن أعطيتها كل ما في يديك ، لن تجد عندها ما يفيد ، وتأثم بالخطيئة .

يا بني : نقل الحجارة مع رجل حكيم خير من شرب الخمر مع رجل لئيم .

يا بنيَّ : اذا أكل الذئب الحية ، قالوا أكلها لقمة ، وإذا أكلها الثعبان قالوا أكلها جوعاً .

يا بنيَّ : لا تُصلح بين ابنك وضرب السياط . لأن الضرب للصبي كالماء للبستان .

يا بني : اذا أرسلت الحكيم في حاجة فلا تؤخره كثيراً لأنه يقضي حاجتك كما تريد ولا ترسل الأحمق بل امش أنت واقض حاجتك .

يا بني : كرة في يدك خير من وزة في قدر غيرك . ونعجة قريبك خير من بعيد . وعصفور حقير في يدك خير من ألف في الهواء .

ثم إن أحيقار تنازل لابن اخته عن وظيفته وعن كل ما له من الضياع والجواري ولم يحتفظ لنفسه إلاَّ بجزء صغير منها . ولكن نادان خيب آمال مربيه ، فاستكثر الثروة وجعل يعرضه حدثاً للأقاويل السيئة ، فعاتبه أحيقار على ذلك بأن كتب منه ومنحه الى أخيه الأصغر «نبوزار ادان» . ملتمساً ان ينبه «وأخذ يُنصح ويتضرع له

ويختتم القسم الأول بمحاولة نادان الانتقام من أحيقار ، فيسلك في ذلك طريقاً دنيئاً : يدس على خاله خطابين ، وجَّه أحدهما الى ملك الفرس ، ووجه الثاني الى فرعون مصر ، وصوَّر أحيقار في كليهما بصورة الخائن لوطنه وملكه ، ثم طلب الى الملكين مخلصين لكي يُسلم إليهما المملكة بغير حرب . ويقع الخطابان في يد الملك وفق الخطة المرسومة . ثم زوَّر في نفس الوقت خطاباً ثالثاً موجهاً الى أحيقار على لسان الملك ، يطلب

إليه فيه أن يجمع كل العسكر الذي عنده ويحضر معهم يوم الخميس في بقعة نسرين ، وأن يجعل الجند تُظهر مهاجته أمام رسل فرعون مصر لكي يعلموا مبلغ قوته . وهنا يقع الحكيم في الحبائل التي نصبت له ، فيطيع ما توهّم أنه أمر الملك . وتقوى الريبة في نفس الملك ، فإذا هو يلمس خيانة أحيقار فيصدر أمره بالقبض عليه وقطع رأسه .

ويشاء القدر أن يكون أحيقار — في مناسبة سابقة — قد أنقذ ذلك الرجل نفسه — الذي وُكل إليه أن يقطع رأس أحيقار ويقذف بها مسافة ذراع بعيداً عن جسده — فيدبر هو وامرأة أحيقار أمر خلاصه ، ويقتل مكانه أحد المحكوم عليهم بالاعدام ، ويختبيء أحيقار في سرداب في حديقة بيته لا يعلم به أحد .

فاذا كان القسم الثاني تغيّر اتجاه القصة . وظهر فيها طابع القصص الهندي حيث توصف شخصيات الوزراء بالحكمة وسرعة الخاطر والقدرة على حل العقد والألغاز . فنحن نرى نادان يخلف أحيقار ، ولكنه ضعيف بادي الضعف . فيغتنم فرعون مصر فرصة ضعفه لاحراج ملك أشور فيبعث اليه يخيّره بين اثنتين : أن يُرسل من يبني له قصراً في الهواء ويرد على أسئلته ، فتدفع مصر له الجزية ثلاث سنوات ، أو أن يعجز عن ذلك فيدفع الجزية لمصر . ويجمع ملك أشور العلماء والحكماء والفلاسفة والعرّافين والمنجمين فيعرض عليهم الأمر فيقرّون بعجزهم ، ثم يعرضه على نادان فاذا هو أشد منهم عجزاً . وعندئذ يحزن الملك على أحيقار ، ويأسف على قتله إياه . وتطول حزنه عليه ، فاذا برأس السيّاف ذلك تتقدّم بين يدي الملك وتخبره أن أحيقار على قيد الحياة ، فيُسَرّ الملك لذلك أيما سرور ، ويخرج أحيقار من مخبئه فيمثل بين يدي الملك ، فيعرض عليه الملك رسالة ملك مصر ، وكان المتوقع هنا أن تتقدم الرسالة لكي تتفق مع نادان على الخيانة ولكن الحلم والقيام بالواجب يؤخرانها . ويأمر الملك أحيقار أن يجيب على أسئلة فرعون ، فيُعِدّ أحيقار لسرين وخادمين سريطين طويلين من القطن صوف كل منهما ألفا ذراع ، ويربط السرين بالشريطين ، ويدرّب الغلامين على الركوب في طير السرين ثم يطلقهما فيطيران في الجوّ على صوت الشريط فاذا وصلا الى الطرف صاح الغلامان فقدموا لهما الحجر والملاط . ويبلغ أحيقار ملك مصر فيسأله الملك أن يشيّد هو وأكره

مملكته . ويدوم الحال على ذلك أياماً ، حتى اذا كان ذات يوم طلب إليه الملك أن يبني له بيتاً بين السماء والأرض فيطلب إليه أحيقار أن يُعد الحجر والملاط ، ثم يطلق أحيقار النسرين وعليهما الغلامان ، فاذا استقرا بين السماء والأرض صرخ الغلامان : أرسلوا الحجارة أرسلوا الملاط فنحن على استعداد للعمل ، وأخذ أحيقار وأتباعه يصرخون في الفضاء وجند الملك لكي يُقدموا للبناءين ما يريدان ، ويرى الملك استحالة نقل شيء إليهما ويعترف لأحيقار بالنصر .

وفي اليوم التالي يقول فرعون لأحيقار إن حصان سيدك اذا صهل في نينوى سمعته خيلنا هنا فطرحت . فلما سمع أحيقار ذلك أحضر ثوراً وأخذ يجلده جلداً شديداً ، فأخبر الناس الملك . فأحضره وقال له لِمَ تضرب هذا الحيوان الأخرس ؟ فقال له إن سيدي الملك كان قد أهداني ديكاً يعرف ساعات النهار والليل وقد تركته في نينوى فقام عليه هذا الثور في هذه الليلة فقطع رأسه ، ولذلك فاني أجلده . فقال له فرعون إن بين مصر ونينوى ثمانية وستين فرسخاً فكيف يستطيع الثور الذهاب الى نينوى والعودة منها ، فقال له أحيقار إذا كان بين مصر ونينوى هذا المقدار فكيف تسمع خيلك صوت حصان سيدي ! ؟

ولسحر هذه الألفاظ فيطلب منه أن ينتل له حبلاً من رمل البحر ، وأن يخيط له حجر رحى قد انكسرت ، ويجيب أحيقار على أسئلته جواباً مقنعاً ، فيعجب به فرعون ويكافئه . فاذا عاد أحيقار الى وطنه غنياً بالهدايا بعد أن طبّقت شهرته الآفاق ، ومثّل بين يدي سنحريب على أنه منقذ بلاده . عندئذٍ يجيء دور الانتقام فيلتمس أحيقار من الملك أن يسلّم اليه نادان فاذا دُفع إليه ربط يديه في سلسلة من حديد وألقاه في مكان منالم في بيته وجعل غذاءه الخبز والماء ، وأخذ يؤنبه بحكمه ، وكان مما قاله له :

يا بنيَّ : قيل بالأمثال من لا يسمع من أذنيه أسمعوه من قفاه .

يا بنيَّ : اعلم أنه لو طال ذنب الكلب والخنزير عشرة أذرع لم يقم مقام الفرس ولو كان مثل الحرير .

يا بنيَّ : أنت صرت لي مثل قرة الحنطة ، لا تصلح لشيء وإنما تُفسد الحنطة وتخرها .

يا بني : قد ثبت قولهم ، إذا ولدت ولداً فادعه ابناك ، وإذا ربيت ولداً فادعه عبدك .

فلما سمع فادان هذا الكلام من خاله وكان يشعر أنه سيعاقبه بأقسى أنواع العقاب ، أراد أن يريح نفسه ويريح خاله ، فيعمل على تبسيط الحوادث ، فإذا هو ينتفخ ثم ينفجر ميتاً . وبذلك تنتهي القصة .

﴿ بابا الحراني ﴾ : ليس لدينا شيء موثوق به عن بابا هذا ، وكل ما نعرفه عنه مستمد مما ذكره مؤلفو كتب الجدل من المسيحيين ، وكان أكثرهم يطلق عليه اسم نبي حرّان وصاحب كتابات في عصر ما قبل المسيحية ، وعماد ابن الصليبي في كتابه في الرد على العرب « الفيلسوف الحراني » ، وكل ما نقل عنه مستمد من كتابين منسوبين اليه يشتملان على وحي ونبوءات تحت عنوان « الكتاب الأول » و « الكتاب الثاني » . وقد نشر اغناطيوس افرايم الرحماني سنة ١٩٠٤ متفرقات منهما في كتابه « دراسات سريانية » Studia Syriaca نقلاً عن مخطوطة في دير الشرفة ننشر هنا ترجمتها العربية :

« لم أكن أحب أن أقول هذه الأشياء . ولكني مضطر — رغم أنفي — الى كتابة ما سوف يقع ، وإني لحزين وباك لوقوعه : تجيء النار — التي هي أقدم من العالم — الى هذه الأرض ، وترى في جسم الأرض والناس وهم لا يشعرون ، ثم تعود فتصعد الى مكانها المرتفع عند ذلك المجد المختفي عن الجميع . وعندما تكون هناك في مكانها يجيء مسيحيوها من أبناء حرّان ، فيقول أبناء مدينة سين (أي القمر) تبّاً لبابا تلك هي الحكمة من أبناء السماء . فلما انتشر عزيز الكل تطيّروا به وخرج منها مكانها » .

ومن نص الكتاب : « يُرى على الأرض إدراك النار الذي لا يموت ، والقرابين الأبدية والنور الذي لا ينطفىء ، وهو ساكن بالسماء ، ويحكم بالسماء وبالأرض وهي به حية ، والكل به مستعين . وكان أبناء حرّان عابدين . كل ما كان ، فهو كائن . وهو أقدم الكل وبه حلّت الحكمة وفيه أقامت . وخارج النور لا يقوم شيء . أيتها الأرض لا تنغمسي في الخطيئة . ولكن اعلمي أن النار التي رأيتُ قائمة الى الأبد عند ما تطلب القمة ، وتنعل السنون بالأرض في وقت قليل وتأفه . تجيء السيئة على ناسها ، ولا تقوم رجلهم حتى يروْن النار التي رأيتُ ويسجدون لها بحق »

ومن نص الكتاب أيضاً : « يقولون كلمة بكنز . تمارا نقع عن الأرض . نسجد لله خالقها ، ويكون بالأرض معبد كبير وقدس ، ويُقرّب كل الشعب قرابانه بصورة خاشعة »

ومن الكتاب الثاني : « ينطلق ذلك الشعاع الذي ظهر من حيث لا يظهر في مكانهم ، ويظهر مع كل معادل له بنور عظيم لا يُدرك . ويشعر كل سكان الأرض بجلال الشعاع الذي اختفى وظهر . ورأيت كأن الروح تخاطبني أن ولداً من نور وار ذلك من الأرض للفائدة والضرر والقيام والسقوط . وا حسرتاه ! بعد زمن سيشيد بيت الآلهة الذي كان معجّداً رمانياً كما كان كابيترل روما ، ولن يتركوا به حجراً على حجر لا ترتعدي إن علمت أن نور الشعاع مُلهِم أشياء كثيرة . ينزل شعاع الرب واضعاً على الأرض . ويقترن بغير آيات حتى يظهر الضياء . ويأتي أبناء فارس يقدسون الضحايا للشعاع : ما أقدس تدبير الألوهية ، وما أعجب المعجزة التي تظهر بالأرض ، إنها أعلى من الكلمة ، وهي فوق إدراك العقل ، ولا تُدرك ولا تُحصى أبداً . ثم تنيم الأرض في السلام تنيد ، وينهض ملكوت الشرق ، ونزول راكب مدينة اليهود . ويقع عابور (أي الجبروت) في الميي وتخدم بابل من أجل ولد المعجزة التي ذكرتُ قصته . ثم ينهض ملوك الغرب ، ويأتون حتى إقليمنا ، ويذبحون داخل مزو ويقرّبون القرابين في داخله . ويريدون إبا الدين ولكنهم لا يستطيعون أن يتراو هكذا الآن الآخرين الذين بعدهم يملكون ولا يُسا نرون »

ثم قال : « بعد زمن طويل سيجيء اسم كبير من الشمال ويقيم داخل مزو ويجعل زملاءه ، وذلك لا يتبع كلامه يتحكم فيه الخراب » .

ثم قال : « محتقر رسله أعظم جاعته » وقال : « من الكل وحلّ با ن تلك هي المعجزة التي حدثت »

وقد نقل ابن العبري بعض فقرات من الكتاب الثاني في الفصل الثامن عشر من كتابه في الرد على العرب (وتقع في ص ٥٢ من المجلد الثاني من صفحة ٥٤ من مخطوطة في مجاميع دار الكتب المصرية برقم ٤٠١٩ وفي الجزء الأخير من صفحة ١٧٣ من مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٩٦) وقد وردت هذه الفقرات ضمن القسم الذي أوردناه

ويلاحظ أنه ينحو في كتابته نحو أسلوب رؤيا يوحنا الكبرى بجملته التي يشير

كل منها الى معنى مستقل ، والفاظه تحمل بين ثناياها أكثر من تأويل واحد . ومما يسترعي النظر أن المسيحية قد أبقت على هذا الكتاب ، ولعلّ الذي دفعها الى الإبقاء عليه اشتماله على تنبؤات عن المسيح لكي تستشهد به وتثني حرّان بالدخول في المسيحية ، على اعتباره كلام نبي لهم . إلاّ أن أسلوب هذين الكتابين وما اشتملا عليه من عبارات ومعاني مسيحية يدفعنا الى الشك في صحة نسبة هذا الكتاب ، وبجملتها نرجح أن المسيحية قد دستها على المؤلف وعلى العصر الذي وضع فيه . ومع أن النشاط الأدبي لأصحاب وثنية حرّان المعروفين بالصابئة كان عظيماً وظلّ مستمرّاً حتى أواخر القرن العاشر الميلادي وبخاصة في النزاع الذي كان قائماً بينهم وبين السريان المسيحيين في التوسط بين الحضارة القديمة والحضارة الاسلامية ، فان المسيحية قد جنت على هذا التراث الأدبي فحرمت العالم منه . ولو أنه وصل الينا لاستطعنا أن نوازن بينه وبين الكتاب المنسوب الى بابا لنتبيّن مقدار صحته .

الباب الثاني

الأدب السرياني المسيحي

قبل الاسلام

﴿ انتشار المسيحية ﴾ : تؤكد جميع المصادر التي بين أيدينا أن الأدب المسيحي السرياني قام في منطقتي الدجلة في منطقة حدّيّب (Adiabene) الواقعة بين نهري الزاب الكبير والصغير شرقي الدجلة ، وفي منطقة الرُّها الواقعة في الشمال الغربي لاقليم ما بين النهرين ، وهو الاقليم الذي يحيط بنهيرديصان أحد فروع نهر البليخ ، وهما المقاطعتان اللتان كانت تسيطر عليهما الدولة الرومانية ، وكانت بمثابة دول الحدود وأقاليم الهجرات اليهودية ، التي كان للارساليات المسيحية نشاط ملحوظ فيها .

ومع أن السريانية كانت لغة هذه البلاد ، ومع أن أهمية الأدب السرياني لم تظهر إلاّ منذ دخول المسيحية في أرضها واتخذت السريانية لغة أدبية ، فإن معرفتنا بتاريخ انتشار المسيحية فيها قاصرة جداً .

أما القصاص السرياني فيزعم أنّ المسيحية حينما اتجهت شرقاً ظهرت أولاً في الرُّها أيام المسيح ، وأن ملك الخابور كتب الى المسيح كتاباً يدعوه ، ومع ذلك نرى أن ملوك المدينة ظلوا على وثنيتهم حتى آخر حكمهم ، وأن الكنيسة السريانية لم يبدأ في الرُّها وإنما بدأ في حدّيّب حيث وُضعت أقدم التراجم السريانية للعهدين القديم والجديد .

يخبرنا يوسابيوس المؤرخ في الباب الثالث عشر من كتاب الآثار القديمة « مونوبار » ملك حدّيّب كان وثنيّاً ، وكان يخشى الحرب ، فأقصاه بعيداً عن مملكته عند صديقه « عبد الرحيم » الذي كان يحكم على النهر الواقع حول مصب الدجلة حيث تقع مدينة البصرة الآن ، وهناك زوّجه « عبد الرحيم » من ابنته « سرمكا » ، كما اشترى اليهودية على يد تاجر يهودي اسمه « حنانيا » . وتمضي الأيام ويطلب « مونوبار » عودة ابنه ، فيعود « أبجر » الى مملكته أبيه ، مصطحباً معه « حنانيا » التاجر اليهودي ، فإذا

« ... يجد أن الملكة هيلانة قد اعتنقت اليهودية أيضاً على يد يهودي آخر ، ثم يدور الفلك دورة أخرى ويعتلي « مونوبار » ويخلفه « يزد » على العرش سنة ٣٦ م . وتصبح اليهودية دين الدولة . وترى « هيلانة » أن الدين الجديد لم يظهر له أي تأثير في الدولة ، فتحج الى بيت المقدس وتقيم به ، وتطول إقامتها فيه ، ويتحين الملك « يزد » هذه الفرصة فيرسل خمسة من أبنائه الى بيت المقدس تتلقى العلم هناك ، ويصبح لهذه العائلة عدد من القصور في بيت المقدس كما يذكر في كتاب المشنه ، وتبني « هيلانة » مقبرة بديعة في بيت المقدس يطلق عليها اسم مقبرة الملوك ، يسميها يوسيفوس المؤرخ (الاهرام) ، دفنت فيها « هيلانة » وابنها « يزد » . ولا تزال آثارها قائمة في بيت المقدس حتى اليوم . ومن هنا تتبين انسة التي كانت قائمة بين فلسطين ومملكة حذيب .

* * *

ويذكر يوسيفوس أيضاً أن « مونوبار الثاني » و « كندلي » ملكي حذيب قد اشتركا مع الثوار في محاربة الرومان ، وأن « ميرسافه » وهو آخر من خلع عنه من ملوكهم كان من الأعداء الأمبراطور تراجان بان حروبه في الشرق ولكنه هزم سنة ١١٦ م . واصبحت حذيب جزءا من الاقليم الآشوري التابع للامبراطورية الرومانية .

هذه الصلة التي توطدت بين مملكة حذيب وبين فلسطين كانت سبباً في انتقال المسيحية الى هذا الاقليم في النصف الثاني من القرن الأول . فان « مشيحا زخا » صاحب تاريخ أربل يذكر أن « أدّى » كان مرسلاً الى قرى حذيب الجبلية لينشر المسيحية هناك وأنه كان من بين تلاميذه « أدّى » رجل اسمه « فقيدا » وأنه أرسله الى أربل عاصمة حذيب فصار أول أسقف للمسيحيين هناك . وكثر في مملكة حذيب المعتنقون للمسيحية ، وكانت كثرة الأساقفة في اربل من الوفود التي أتت من مسيحيين من أصل يهودي فقد كانت أسماؤهم مستمدة من كتاب العهد القديم مثل شمعون واسحاق وابراهام ونوح وهابيل .

ويحدد صاحب تاريخ أربل بداية بعثة « أدّى » لسنوات الأخيرة من القرن الأول .

ويذكر أن «أدّى» و «ماري» كانا أول مبعوثين الى كرخا (كركوك) وهي مدينة في شمال العراق وعدد من الأماكن الأخرى.

والراجح أن المسيحية قد تخطت بعد ذلك حدود هذا الاقليم ناحية الشرق، فنحن نعلم من النصوص المانوية المكتشفة حديثاً في مصر أن ماني ذهب الى الهند حوالي سنة ٢٤٠ م. قبل أن يبشر بمذهبه في وطنه، وليس ثمة شك في أنه ذهب الى هناك في إثر القديس توما رسول الهند، وقد توقع ماني أن يجد في الهند جالية مسيحية، وصح ما توقعه فعلاً، فنحن نسمع أنه «كوّن هناك نخبة طيبة» أي انه أنشأ هناك طائفة من أتباعه.

وإذاً فقد دخلت المسيحية حذيّب في النصف الثاني من القرن الأول ومنها انتقلت الى الهند فيما بعد، وبذلك يسقط الرأي القائل أن المسيحية قد دخلت الى الرُّها قبل دخولها الى أي اقليم آخر من أقاليم المشرق. ولكننا مع ذلك نحب أن نناقش هذا الرأي.

* * *

يعتمد الذين يذهبون هذا المذهب على عدد من الوثائق لا تعدو أن تكون كلها من الأساطير. وأقدم هذه الأساطير «قصة أبجر»، وملخص هذه القصة، أن أبجر الخامس ملك الرُّها الملقب بالأسود (المتوفى حوالي سنة ٥٠ م) لما سمع بخبر العجائب التي يفعلها المسيح، أرسل اليه رسالة يرجوه فيها أن يشخص اليه ليبرئه من علته، ويعرض عليه في تلك الرسالة أن يقيم معه في مملكته بعيداً عن اليهود الذين يريدون به السوء. وتقول الأسطورة أنه أرسل مع الرسول رساماً لينقل اليه صورة المسيح اذا اعتذر عن القدوم اليه. فلما وصلت الرسالة الى المسيح اعتذر عن الذهاب الى الرُّها، وكتب الى أبجر: «طوبى لمن آمن بي قبلما يراني، فقد كُتب عني ان الذين يروني لا يؤمنون بي، والذين لا يروني يؤمنون ويخلصون. أما طلبك أن أجيء اليك، فيجب أن أتم هنا كل ما أرسلت لأجله، وبعد انتهاء عملي، وصعودي الى من أرسلني، أبعث اليك واحداً من تلاميذي ليبرئك ويحييك ومن معك الحياة الأبدية».

تقول الأسطورة إنه بعد قيام المسيح أرسل أحد تلاميذه الى الرُّها وفاء بالوعد الذي

قطعه المسيح على نفسه في هذه الرسالة . وقد قبل أوسابيوس المؤرخ هذه القصة في تاريخه الذي وضعه في بداية القرن الرابع على انها مأخوذة من أصل سرياني محفوظ في دار المحفوظات الرُّهاوية . وتذكر هذه الأسطورة أن الرسول هو «تدّاي» أحد الاثنى عشر ، ويستعاض عنه في اسطورة أخرى هي «قصة أدّى» بأدّى نفسه ، ويقال إن الذي أرسله هو توما رسول الشرق ، الذي نقلت رفاته بعد وفاته الى الرُّها ودفنت هناك في تابوت من الفضة سنة ٣٣٢ م . وقد اشتملت قصة أدّى على عدد كبير من الأسماء ، كما أظهر المؤلف أنه مولع بإخراج صورة لأحوال البلاط الملكي في الرُّها في ذلك الحين . ولكن البحث أظهر أن أكثر أصحاب الأسماء المذكورة في هذه القصة لم يعملوا في بلاط أبجر ملك الرُّها ، وإنما عملوا — فيما تنطق به الوثائق التاريخية — في بلاط ملوك البرتيين في ذلك الحين ، وهم ارتبانس الثالث (١٢ — ٣٨ م) وجوتارس الثاني (٣٨ — ٥٠ م) . وفاردان (٣٩ — ٤٧ م) وبذلك تكون القصة قد أُلفت في الأصل في بلاد يحكمها ملوك البرتيين وهذه البلاد هي حدَيْب .

* * *

والظاهر أن تلك المنطقة لما أصبحت إقليماً مسيحيًّا الى حدٍّ كبير ، حوّل الناس الحقائق التاريخية التي كانت معروفة عن اعتناق الملك «يَزْد» لليهودية والتي ذكرناها من قبل الى قصة مسيحية . ولا يزال عندنا بقايا من قصة حدَيْب المسيحية هذه ، وفيها يستبدل اسم الملك «يَزْد» باسم «نرسي» ، وهو يُسمّى في رسالة أدّى الرُّهاوية «نرسي ملك الآشوريين» .

أما في الرُّها فقد استبدل الملك يَزْد (أو نرسي) بمعاصره الملك «أبجر الخامس أوكّاما» ملك الرُّها ، واستبدل اسم «حنان» التاجر اليهودي الذي لعب دوراً هامًّا في اعتناق «يَزْد» لليهودية بحنان (طبولارا) أمين المحفوظات الملكية الذي كان أبجر قد أرسله الى فلسطين والذي لعب دوراً هامًّا في تحوُّل الملك أبجر الى النصرانية فيما تقول القصة . أما «حيلانة» أم يَزْد فقد جُعلت زوجة أبجر في النص الأرمني للقصة .

وتذكر القصة في ناحية أخرى أن «أدّى» كان معلم «طالوط» الذي كان أستاذاً على

الرُّها في النصف الأخير من القرن الثاني . وإذا كان « أدّي » رسول حدّث والأراضي المجاورة للمدينة — الذي حدّد صاحب تاريخ الرُّها بعثته بأواخر القرن الأول — كان عليه أن يتقدم على تاريخه أكثر من ستين سنة لكي يجعل منه تلميذاً للمسيح في عهد الملك أبجر الخامس . كما كان عليه أيضاً أن يتأخر عن تاريخه بنحو من ستين عاماً لكي يصبح معلم الأسقف فلوط . وبذلك يكون « أدّي » قد اتصل بالرُّها مرتين : واحدة في الربع الثاني من القرن الأول والثانية في النصف الأخير من القرن الثاني . والعجيب بعد ذلك أن اسمه لم يرد في تاريخ الرُّها ، ولم يُعرف شيء عن نشاطه في الرُّها على الاطلاق .

وهناك من يقول إن المسيحية دخلت الرُّها في الربع الثالث من القرن الثاني ويربط اصحاب هذا الرأي بين « أدّي » وبين دخول [illegible] (الديالسّرون) الى الرُّها ، و« أدّي » عند أصحاب هذا الرأي معاصر لطاطيان مؤلف (الديالسّرون)، بل إنهم يُغالون فيقولون إن الرجل الذي كان يسمى « طاطيان » في الغرب ربما كان هو بعينه الذي سُمّي « أدّي » في الشرق . والغريب أيضاً أن تاريخ [illegible] لم يذكر اسم واحد من الرجلين ، ومعنى هذا أن الرُّها لم تعرفهما .

وإذاً فلا يمكن اعتبار قصة أبجر ، أو قصة [illegible] ي وثيقة تاريخية لدخول المسيحية في الرُّها فالقصتان وإن اشتملتا على بعض الحقائق [illegible] ية ، فهذه الحقائق قد وقعت في زمن متأخر عن العصر الذي يراد نسبة القصتين اليه ، ولكنها حملتا على الرُّها لتصوير نظرة متأخرة لما كان يطمع الرُّهاويون أن تكون [illegible] مسيحية في مدينتهم .

وتريد الأساطير أيضاً أن تجعل المسيحية الديانة [illegible] في الرُّها عقب اعتناق الملك أبجر التاسع (١٧٩ — ٢١٤ م) لهذا الدين . ويقال إنه كانت لابن ديصان معه اتصالات حملته على اعتناق المسيحية . ومع ذلك فإن ابن ديصان الفيلسوف السرياني الشهير قد ذكر عدة مرات في التوما [illegible] ها سنة ٢٠١ م . كما يذكر عنه تلميذه [illegible] م . ولكن لم يرد في ذلك التاريخ أية إشارة ولو ضمنية لاعتناق هذا الملك للمسيحية .

ونستطيع بعد ذلك أن نقرر ما لدينا من الحقائق عن هذا الموضوع على النحو التالي :

١ — تروي المصادر أن ابن ديصان (الذي وُلد الرُّها سنة ١٥٤ م . والذي سنتحدث عنه فيما بعد) قد اعتنق المسيحية في الرُّها في النصف الأخير من القرن الثاني ، ومعنى هذا أنه كانت في الرُّها طائفة مسيحية في ذلك الحين .

٢ — ترجع أقدم إشارة الى بناء كنيسة في الرُّها الى ما جاء في تاريخ الرُّها من أن الفيضان الكبير الذي أصاب المدينة سنة ٢٠١ م قد خرَّب هيكل كنيسة المسيحيين .

وتكون المسيحية إذاً قد دخلت الرُّها حوالي منتصف القرن الثاني أي بعد دخولها في حذَيْب بنحو قرن من الزمان .